560

عبير

HARLEQUIN

www.elromancia.com

مرمورية

زاوية صغيرة في قلبي

كاترين سبنسر

زاوية صغيرة في قلبي

كاترين سبنسر

«انني لست من يصلح للواقعات في محنة.»

ولكن رغم ما يدعيه، كان ميك سيلتون يطاردها، إذ انه منذ اللحظة التي جاء فيها إلى المدينة، استولى على قلب مادلين بجاذبيته الفائقة للنساء، ولم تكن هي فتاة ضعيفة، ولكن لم يخطر ببالها على الاطلاق ان كل كلمة رقيقة منه، وكل همسة شاعرية، كان هو قد خطط لها مسبقاً، وبقصد، تبعاً لخطة مرسومة.

لكنها خطة سرعان ما ابتدأ ميك نفسه يرتاب فيها...

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال - تونس: ١ دينار

«أنا اكرهك.»

لو ان مادلين كانت تكهنت بما سيحدث لها من مشكلات، لهربت إلى ملجأ آمن، ولكنها في الوقت الذي أدركت فيه مبلغ ذلك، كان الوقت قد فات.

حدثها عقلها بأن تقاوم، ولكنها كانت اضعف من ذلك، وهو يرفع رأسه ليسألها: «كم هو مبلغ كراهيتك لي، يا مادلين؟»

www.romancia.com مرموريات

كاثرين سبنسر

عندما كانت معلمة، سمعت مرة حديثاً عن الروايات العاطفية في دار هارلكوين للنشر، وخلال شهرين كانت قد غيرت مهنتها وباعت أولى رواياتها لدار ميلز اند بون ونلك سنة ١٩٨٤. كانت قد انتقلت من انكلترا إلى كندا منذ ثلاثين عاماً، وتعيش في فانكوفر، متزوجة من رجل كندي ولديهما أربعة أولاد، ابنتان وابنان، تعزف البيانو في اوقات فراغها، وتجمع التحف وتعتني بإنماء النباتات الاستوائية.

٥٦٠

قلوب عبير

khouloub Abir 560

زاوية صغيرة في قلبي

كاثرين سبنسر

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

لتنبه ألا تبتاع هذه الرواية من غير غلاف لأنها قد تكون مسروقة، فيجب إبلاغ الناشرين لأن الكتاب الذي لم يبع، يجب إتلافه، فأي من الكاتبة أو الناشرين لم يتقاضوا ثمناً لهذه النسخة المسروقة.

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

A LITTLE CORNER OF PARADISE

Copyright © by Catherine spencer 1994

ISBN 0-263-78980-2

Mills & Boon first edition October 1994

عنوان الطبعة العربية الأولى عن دار م. النحاس

زاوية صغيرة في قلبي بقلم: كاثرين سبنسر

ترجمة: بلقيس حوماني

سلسلة قلوب عبير ٥٦٠

حقوق النشر باللغة العربية محفوظة ومحصورة في جميع البلدان لدار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات – بيروت (دار م. النحاس) بترخيص من هارلكوين انتربرايزس ليمتد (Harlequin Enterprises Limited).
جميع الحقوق محفوظة. باستثناء استعماله في أي مرجعية، يمنع استنساخ هذا الكتاب أو استعماله كلياً أو جزئياً بأي شكل وبأي جهاز من الأجهزة الالكترونية أو الميكانيكية أو الوسائل الأخرى، المعروفة الآن أو التي يتم في ما بعد اختراعها، بما في ذلك الوسائل الزيروغرافية والتصوير والتسجيل أو تخزين أي معلومات منها أو استعادتها بأي جهاز من الأجهزة، من دون الحصول على إذن من الناشر.
كل شخصيات هذا الكتاب ليس لها وجود خارج خيال الكاتبة. وليس لها أية علاقة بأي شخص قد يصدف ويتشابه اسمه مع أحد الأسماء في الكتاب ولا تستند شخصيات الكتاب، أو الأسماء التي تحملها إلى أية شخصية تعرفها، أو لا تعرفها الكاتبة، بل كل أحداث الرواية هي من نسج الخيال الصرف.

العنوان: دار م. النحاس لتوزيع الصحف والمطبوعات – بيروت – لبنان شارع فردان بناية رضوان الطابق التاسع: ص.ب: ١١/٩٧١٨ – فاكس: ٧٤٣٦٣١ (٠١) – هاتف: ٧٤٣٦٣٣ – ٧٤٣٦٣٤ (٠١) – ٢١٩٢٩٣ (٠٣)

عزيزي القارىء

يسرنا أن نضم الى سلسلة عبير، سلسلة جديدة بعنوان قلوب عبير. ويهمنا أن ننشر هذه السلسلة بغية ارواء شغفك للقراءة وحبك لمطالعة أدب بات الأدب الأكثر رواجاً في عالم اليوم.

ونحن، إذ ننشر اليوم هذه السلسلة الجديدة، نعدك دوماً وكسابق عهدنا، بانتظام اصداراتنا من قلوب عبير بمعدل ٥ روايات شهرياً لتكون سلواك في أوقات متعتك الخاصة.

كما نعدك ببذل الجهد المتواصل من أجل إطلاعك دائماً باللغة العربية على أحدث ما يصدر في هذه السلسلة العالمية وعن لغة الأصل: الانكليزية.

إن رفع وتيرة الاصدار والزيادة في تنويع المواضيع وألوانها إنما هما هاجسنا الدائم.

ولا تنس يا عزيزي القارىء أن طبعة قلوب عبير هذه التي أردناها لائقة بك وبذوقك، إنما هي النسخة الأصلية.

وقوفك إلى جانبنا، إنما يعبر عن اخلاصك لنفسك وذوقك وحرصاً على وقتك الذي نوظفه لك في مجال أدبي ثقافي، مفيد وممتع.

إن وقوفك معنا يوفر لنا الدعم والمناخ اللذين لا بد منهما للمضي قدماً في رحلة العطاء الدائم والتجديد والتنويع...

تمهيد

شيء ما... قد يكون رؤية آخر اقربائه الأحياء.. أعادت إدموند من العالم المجهول الذي يفصل بين الحياة والموت.

ففي لحظة قصيرة من الصحو وجلاء الذهن، قال الرجل العجوز متوسلاً: «لا أريد ان أراه يباع. لا تدعهم يأخذونه مني، يا بني.»

«يأخذون ماذا يا جدي؟»

فتشبث إدموند بيد حفيده، وقد أعارته اللهفة قوة سريعة: «املاكي في جزيرة سبندريفت. ان فلورا لا تعلم كم هي غالية عند جدتك. واذا انت لم تمنعها فهي ستدعهم يأخذونها.»

فسأله ميك والذي كان يعلم بذلك لأول مرة، سأله بذعر: «ومن هم الذين سيأخذونها؟»

لكن فلورا، والتي كان يعلم انها تحوم حول الباب، كانت تسترق السمع كعادتها كلما كان مع جده بمفردهما، فاندفعت داخلة إلى الغرفة تخبره بأن الاضطراب يسيء إلى صحة إدموند.

فقال لها ميك بحدة وقد فرغ صبره: «إبقي بعيدة عن هذا الأمر، يا فلورا. فهذا ليس من شأنك.»

قالت وهي ترتجف: «بل هو كذلك، أريد ان اتحدث اليك على انفراد، يا ميك.»

فقال بنفس الحدة: «فيما بعد.» ثم عاد إلى جده، ولكن بعد فوات الأوان، فقد كان ادموند قد عاد إلى عالمه المظلم ذاك، وهو يتمتم بغموض: «السياسيون... كلهم محتالون. لا تثق بهم أبداً، يا بني، انهم يملأون جيوبهم من احزان الآخرين.»

انتظر ميك إلى ان عاد جده إلى النوم، ثم ادخل فلورا إلى غرفة الجلوس، بتهذيب اقل مما تعودته في مجتمعاتها، ليقول لها بغضب: «ما السبب في هذا كله، يا فلورا؟»

فانخرطت في البكاء، مازاد في غضبه، فقد كان يكره المرأة التي تلجأ إلى البكاء لكي تبتز عطف الرجل وتحمله على الامتثال لما تريد. ثم قالت بصوت باك: «لم يعد لدينا نقود.»

فقال بقسوة: «لا تكوني معتوهة، حتى انت لا يمكنك ان تقضي على ثروة إدموند بكاملها.»

ولكن هذا حدث لسوء الحظ، وحتى آخر قرش تقريباً، وإلى حد ان الضرائب على الأملاك في جزيرة سبندريفت لم تدفع منذ خمس سنوات.

فصرخت فيه قائلة: «ان مصلحة الضرائب ستستولي عليها إذا نحن لم ندفع، وهذا ليس كل شيء، فهم سيبيعونها فقط بالمبلغ الذي ندين لهم به، ولكن جدك كان يتكدر كلما حاولت ان اشرح له الأمر، ما جعلني اتوقف عن ذكر ذلك له.»

لم يصدقها ميك في البداية، لم يستطع ان يصدق ان ثروة ادموند قد تبددت إلى حد لم يعد يستطيع معه ان يدفع الضرائب، ولكنه عندما أخذ ينقب في أوراق جده في مكتبه،

ظهرت له الحقيقة، وهي ان العجوز المسكين إدموند على شفا الافلاس.

وإذ لم يكن باستطاعة ميك ان يقف جانباً ويدع ذلك يحدث، فقد قام بالشيء الوحيد الذي يستطيعه لكي يمنع ذلك

www.elromancia.com

الفصل الأول

كانت مادلين موشكة على الشروع في نزهتها المعتادة مع كلبتها العرجاء فوق كثبان الرمال، وذلك صباح يوم الخميس، عندما توقفت سيارة آندي لاثام امام باب بيتها.

قال لها وهو يخرج من السيارة: «انني مسرور إذ أصل في الوقت المناسب، يا عزيزتي.» ولكنها رغم كلمة السرور هذه أدركت في الحال انه جاء في مهمة رسمية لأن أول شيء قام به هو وضع قبعته البوليسية على رأسه بحزم، لقد كان آندي حازماً تماماً بالنسبة للقوانين، وهذا احد اسباب شعور مادلين بالارتياح معه.

ابتسمت له بحرارة: «لا يبدو عليك القلق، ولهذا فالأمر غير خطير، يا آندي، اتراني خرجت على القانون بشيء ما، أو ما اشبه؟»

فأجاب وقد خلت ابتسامته من تألقها المعتاد: «يا له من سؤال، انني جئت فقط لأتفحص في أمر رجل غريب اقام في هذه النواحي.»

وانحنى يربت على الكلبة ذات الثلاث قوائم والتي كانت تدور حولهما تلتمس العطف كالعادة. وعندما عاد ينظر إلى مادلين، كانت الرزانة تسود ملامحه: «ان لديك جاراً غريباً هو شخص جاء في سيارة جيب تجر بيتاً على عجلات استقر بها على أراضي تايلور العجوز، فقد رأيت

آثاراً حديثة لعجلات سيارة على الطريق المؤدي إلى ذلك المكان وذلك عندما مررت من هناك في طريقي إلى هنا، لقد رأوه في المدينة أمس، ثم توقف عند مرآب فيكمان يسأل عن الطريق، وهو ليس من سكان هذه المنطقة بكل تأكيد.»

سألته بمرح: «وهل عليّ ان اقلق لهذا؟» لكن ملامح آندي بقيت على رزانتها، وعلى كل حال، لم يكن في هذا ما يدعو إلى الدهشة مادام يقوم بعمله بشكل جدي للغاية.

فأجابها: «ربما، أو عليك ان تنتبهي على الأقل، وتتخذي الاحتياطات اللازمة لحماية نفسك.»

تحمي نفسها؟ ومن شخص مخيم هنا؟ «لا تكن سخيفاً يا آندي، فهذا بلد حر، وليس هناك أية لوحة موضوعة على أراضي تايلور تحذر من التعدي عليها، وقد يكون رجلاً عجوزاً مسالماً يبحث عن مكان يقوم فيه بصيد السمك.»

«انه ليس عجوزاً، وانا لست واثقاً من انه مسالم، فقد اظهر اهتماماً كبيراً بالمنطقة، ما تشوّش ذهني... وأنا أراه جذاباً للغاية، في الواقع، بحيث انتهى بأخذ برينت، صاحب المرآب، بعد اغلاق الكاراج إلى حيث تناولا المرطبات.»

عادت مادلين إلى الضحك، فقد كان برينت فيكمان معروفاً بحبه للأقاويل مع أي شخص يشجعه على ذلك، وقالت: «ربما هذا يجعل الرجل يستحق العقاب ولكنه لا يجعله مجرماً، يا آندي.»

«قد يكون الحق معك، ولكن الزمن تغير منذ جاء جدك الأكبر ليستقر هنا وذلك سنة ١٩٠٠، فهذه المنطقة لم

تعد منطقة صغيرة معزولة كما كانت، يا مادلين كما انك لست زوجة صاحب املاك تعيشين بين بيوت عمال المزرعة عندما تحتاجين إلى مساعدة، انك هنا تعيشين بمفردك.»

«كلا، أنا لست كذلك، ان لديّ كلبة بثلاث قوائم تبذل حياتها في سبيل حمايتي.» واثباتاً لكلامها، كانت الكلبة تدور حول مادلين كل لحظة، وتهمهم مسرورة كلما ربتت هذه عليها.

«انك امرأة تعيش بمفردها في عزلة عن المجتمع، ثم تظنين ان من الذكاء ان تخرجي دون ان تقفلي ابوابك.» كان صوته هذه المرة يوحي بانعدام صبره عليها. «وهذا هو السبب، يا مادلين، الذي جعلني احضر شخصياً لتنبيهك، وذلك بدلاً من ان اقوم بما هو المفروض عمله، هذه اللحظة والذي هو قراءة تقارير الليلة الماضية عن الجنح التي وقعت في هذه المنطقة.»

فقالت له: «كان بإمكانك ان تتصل بي هاتفياً فتوفر عليك هذا الإزعاج. ان الشيء السار في جزيرة سبندريفت انه لم يكن في حياة جدي الأكبر هاتف يصلها ببقية العالم.»

«انني لم اتصل لأنني كنت اعلم انك كنت ستستمعين إليّ وتوافقينني على كل شيء، ثم بعد ان تضعي السماعة، تنسين كل شيء قلته لك، وهكذا قطعت كل ذلك الطريق اليك هنا. وقبل ان اعود، أريد ان أرى جارك الغامض هذا لأفهم سر تحركاته وهو يأتي بشكل مفاجيء إلى شبه الجزيرة الصغيرة هذه والتي لا تصلها بالأرض

اليابسة سوى طريق يبلغ الخمسة أميالا طولاً، انني سأبحث في أمره، وإذا ساورني الشك فيه فسأستدعيه للتحقيق.»

فقالت متذمرة: «انك تجعل ذلك يبدو وكأنه تمهيد لجريمة غامضة.»

فتنهد آندي: «كلا انا لست كذلك، انني أريدك ان تعترفي بحكمة الحذر.»

ربما هذا صحيح، ولكن كل ما فعله هو إيقاظ فضولها، ما اصبحت معه متلهفة إلى مقابلة موضوع مثل هذه الشكوك.

رسمت على شفتيها ابتسامة عذبة وهي تقول: «إذن دعنا نذهب معاً لمقابلته.»

وإذ تملكه الرضا لإذعانها هذا سار امامها وهو يقول: «ان خيمته على الأغلب قرب المنتجع، وهو مكان مستور تماماً ويقع في نهاية الجزيرة، وهو تقريباً الخيار الوحيد الذي كان امامه حيث انه لا يوجد طريق آخر سالك ما عدا إلى أرضك.»

اخذت الكلبة بيغليغ تعرج خلفهما مسرورة بتغيير طريقها المعتاد.

كان الوقت هو آخر اسبوع من ايلول (سبتمبر)، وقد تخلل الهواء برودة الخريف. وكانت الرمال فوق الكثبان ناعمة كالدقيق سرعان ما غطت حذائي آندي.

لم تلاحظ مادلين أية آثار اقدام غريبة وهي تتبع آندي حول أرض تايلور، وكانت هناك نتوءات صخرية تشكل الحدود بين أرضها وبين المنتجع، والتي تتحول إلى ممر خطر عندما يبلغ المد أقصاه، ومهما يكن هذا الزائر، فلا شك

انه لا يهتم بالتطفل على عزلتها، وقد يكره منهما هذا التسلل اليه وإزعاج عزلته.

لكنه على كل حال، هو الذي فاجأهما بحضوره. كان ينتظرهما، لا يكاد يبدو للعيان وهو يقف في ظل البوابة التي تعلو السلم الذي يفصل بين الشاطىء والمنزل، ويبدو انه رآهما قادمين نحوه منذ الدقيقة التي اتجها فيها إليه، ولكن لا هي ولا آندي انتبها اليه قبل ان تشم الكلبة رائحته.

وفي نفس الوقت تقريباً الذي تقدم هو فيه إلى حيث أشعة الشمس، كانت الفكرة الأولى التي خطرت في بال مادلين هو ان آندي كان لديه الحق من هذه الناحية، على الأقل إذ لم يكن الزائر كبير السن، وقد يكون بين الخامسة والثلاثين والأربعين، كما اخذت تخمن بشكل مبهم وقد صعقت إزاء المفاجأة التي جابهتها بها عيناه.

استقرت نظراته في عينيها ثم لم تبارحهما ما جعل افكاراً مجنونة تخطر لها مثل ان تبتعد عنه الآن، قبل فوات الأوان. أم لعل الأمر بالعكس؟ وانها هي المتلهفة إلى تسهيل العلاقة؟ ذلك ان عينيها رغم محاولاتها، قد تسمرتا عليه كما تتسمر إبرة البوصلة باتجاه مغناطيسية الشمال.

ولم يكن ذلك نهاية الأمر لأن الضيق الذي تشعر به في صدرها كان أشبه ما يكون بما لو انها ركضت ميلاً صعوداً على التلال لتشعر في النهاية وكأن قلبها قد انقبض في داخلها لكي يعيد ضخ الدم الحار في عروقها.

وإذ اثارت ردة الفعل هذه الإضطراب في نفسها، قبضت يديها بشدة، ولكن هذا لم يكن كافياً لتهدئة اعصابها، وذلك رغم جهودها في ذلك.

كيف يمكنها ان تصف قوة تأثير هذا الرجل الواقف امامها؟

رغم ان آندي كان يبلغ الستة اقدام طولاً، إلا انه كان يبدو قصيراً بجانبه. ولكن ليس طول قامة هذا الغريب هي التي منحته قوة التأثير هذه، ذلك ان شخصيته كانت تنضح قوة وسلطة، قوة العضل والعصب بكل تأكيد، ولكن قوة القيادة والسيطرة كانت اشد تأثيراً، كل ذلك جعل من شخصيته هذه شيئاً لا مثيل له.

هو ذا رجل لا يفهم معنى الخوف ولا يمكن ان ينحني امامه، ولكنه ليس خطراً أو قاسياً عنيفاً، لقد عرفت مادلين ذلك على الفور، من ناحية، لأنه لم يطرف له جفن وهو يرى كلبة ضخمة تقفز عليه، ومن ناحية أخرى لأن الكلبة بعد ان تشممت كاحليه، أبدت رضاها عنه وسمحت له بأن يربت على رأسها.

لم يكن من السهل الانتصار على آندي فقد بادره قائلاً: «انه صباح جميل.» ولكن يده التي كان وضعها على قراب مسدسه لم تكن تشير إلى أي مودة.

لكن الغريب والذي لم تتملكه أية رهبة، لم يخرج عن أنه أوما يقول: «جداً.» وهو يلقي نظرة سريعة على آندي، ثم يلتفت إلى مادلين بفضول شديد.

نظرت هي إليه بدورها، إذ مازالت غير قادرة على تحويل نظراتها بعيداً، وقلبها يخفق بعنف، وبجانبها، تنحنح آندي بضيق، ثم وضع قدمه على الدرجة العليا، وهو يقول: «انه يوم رائع لصيد السمك، هل لديك ما يصلح طعماً؟»

فهز الرجل كتفيه، قائلاً: «فتشني.»

بدا على آندي الرضى البالغ عن ذلك، ثم قال: «انك لم تحضر إلى هنا لصيد السمك إذن؟»

فتحولت عيناه الزرقاوان المتهكمتان من مادلين إلى ملامح آندي المتصلبة، ثم سأله بسخرية: «كلا، وانت؟»

احمرت وجنتا آندي قليلاً: «ربما، انني الضابط لاثام، رئيس مخفر ادجووتر.»

فقال الرجل بوقاحة: «تهانئي.» وبدا الهزل في زاويتي فمه والذي لم يكن يبدو أنه ضحك يوماً، فاحمر عند ذلك، وجه آندي تماماً: «إنني لم اسمع اسمك جيداً.»

«ربما لأنني لم اتفوه به، ولكن إذا كان هذا يهمك فهو هاميلتون، ميك هاميلتون.»

«مادمت لست هنا لصيد السمك، فلماذا انت هنا، إذن؟»

فرفع ميك هاميلتون حاجبه ما يعني ان هذا ليس من شأن آندي، ولكنه لم يشأ ان يقول ذلك صراحة، وبدلاً من ذلك قال وهو يشير إلى آلة التصوير المعلقة في عنقه: «انني اقوم بالتصوير الفوتوغرافي، فأنا مراقب طيور.»

«انك لست من هذه المنطقة.»

كان في لهجته اتهام اكثر منه تقرير واقع، ما دفع ميك هاميلتون إلى العودة باهتمامه إلى مادلين، لقد عادت وقاحته المتهكمة تلك مرة أخرى لتضايق الرجل الذي كان حقاً افضل عنصر في مخفر إدجووتر.

ثم قال وهو ينظر إلى مادلين باسماً: «كلا، هل ذلك مخالف للقانون، يا حضرة الضابط؟»

فأجاب آندي بحدة وهو يتقدم ليقف بجانب مادلين وكأنه يحميها: «ليس بالضرورة.»

لم تفت ميك هاميلتون هذه الحركة، فضاقت عيناه وهو يتمتم قائلاً: «فهمت، انني إذن أتعدى على املاك الغير، ومهدد بالقبض عليّ إذا لم انتقل من هنا.»

فقال آندي بانفعال: «كلا.»

«في هذه الحالة...» وارتسمت على وجه ميك هاميلتون ابتسامة عريضة وهو يهز كتفيه ثم يبتعد عنهما رافعاً آلة التصوير ليسدد عدستها إلى سرب من طيور النورس يندفع زاعقاً نحو البحر.

لكن مادلين استمرت تحدق إليه مفتونة، كان صوته عميقاً جذاباً، كما كان اسود الشعر لامعه.

وربما كان آندي سيلقي القبض عليها لو انه علم ما يدور في ذهنها.

قالت متمتمة: «يبدو انه غير مؤذي، اظن بإمكانك ان تتركني بذهن مرتاح، يا آندي.»

فحملق آندي في الرجل الغريب بارتياب وهو يقول: «كلا، وانا أراهن بآخر دولار لدي بأن هذا الرجل لا يعرف عن تصوير الطيور اكثر مما اعرف أنا.»

«ما الذي يجعلك تقول ذلك؟»

«الفطنة، يا مادلين، ولقد مضى عليّ في الخدمة مدة تكفي لكي أثق بغريزتي، هذا بالإضافة إلى انه ليس هناك مراقب طيور يضيع وقته وافلامه على تصوير طيور النورس بينما على بعد نصف ميل من هنا مستعمرات للنسور وطيور مالك الحزين.»

تنهد وهو يلمس مرفقها قائلاً: «لا اظن ان بإمكاني ان اقنعك بالبقاء بعيدة عن الشاطىء إلى ان أجري عنه البحث.»

فقالت: «ان ظنك صحيح، ولكن إذا كان يطمئن نفسك ان اتصل بك عندما أعود إلى البيت، فسأفعل.»

«نعم، ولا تتأخري عن ذلك، انني سأنتظر مخابرتك هذه ولا تنسي موعدنا مساء الغد.»

فتنهدت مادلين وقد ساورها بعض الضيق، ذلك ان آندي مثله في ذلك كثيرون في هذه المدينة الصغيرة، يصر دوماً على التصرف وكأنها بحاجة إلى من يحميها... وكأنها، لأن رجلاً قد خدعها مرة، قد فسد إدراكها إلى الأبد، ألن يسمح لها أبداً بنسيان ذلك؟

«يا له من فارس منقذ مدجج بالسلاح.»

سمعت هذا الصوت من فوق كتفها، يقول ساخراً بينما كان آندي يعود أدراجه. «ألديه حصان أبيض ينتظره ليعيده إلى عمله؟»

أدركت مادلين ان ميك هاميلتون قد شاهد كل ما حدث بينها وبين آندي، رغم اهتمامه بتصوير الطيور، رغم انها ليست واثقة من انه سمع كل شيء.

فأجابت: «كان بانتظاره حوالي المئتي حصان أبيض تحت غطاء سيارة مخططة باللون الكحلي لتتلاءم مع بذلته، انه ضابط شرطة في غاية الكفاءة، وانت لم تكن لطيفاً إذ تغيظه بذلك الشكل.» قالت له هذا ترد على سخريته بسخرية مثلها، يدفعها إلى ذلك ولاؤها لآندي.

فقال: «أراني كنت فعلاً كذلك.» ولكن لهجته لم تكن تحمل

أي إشارة إلى ندم أو أسف، وفي الواقع، كانت الابتسامة الخفيفة التي بدت على شفتي ميك هاميلتون اظهرت انه كان مسروراً للغاية من نفسه. وانحنى يداعب الكلبة بفرك اذنها الناعمة، ثم استقام واقفاً وأخذ يحقق مع مادلين: «هل تعيشين في هذه الأنحاء؟»

فقالت تشير بيدها: «انني أسكن هناك على بعد حوالي ربع الميل من الشاطىء. يمكنك ان ترى المداخن تطل من خلف كثبان الرمال.»

«بمفردك؟»

ترددت بين الحقيقة والتهرب: «ليس تماماً.» ففهم ما وراء ذريعتها هذه، فقال يسألها: «اتعنين انك انت وكلبتك فقط؟»

فاعترفت قائلة: «نعم.» أرادت تجنب فضوله بتوجيه سؤال اليه. «وماذا عنك أنت؟ اظن انك لست من هذه المنطقة، فمن أين أنت؟»

ابتعدت نظراته إلى الأفق فوق البحر، حيث كانت مجموعة من الجزر الصغيرة تبدو في ضباب الصباح، ثم قال بغموض: «من الجنوب.» ومن هذا افترضت انه اميركي وليس كندياً.

«وكيف عثرت على هذه البقعة؟ انها ليست على أي خريطة للمنطقة.»

«لقد ابتدأت تصبحين مثل صديقك الشرطي، هل يريحك ان تعلمي ان ليس لدي سجل إجرامي؟ وانني موظف اقبض راتبي كل شهر؟»

فقالت بحرارة: «لم اكن اعني التجسس عليك، كل ما في

الأمر هو اننا لا نرى سائحين في هذا المكان، بشكل عام وأنا اعجب لما قد يكون جذبك إلى هذه المنطقة.» هزت كتفيها وهي تنظر حولها إلى الأعشاب الطفيلية النامية بين الأحجار، الشجيرات غير المشذبة، حديقة الورود نصف المدفونة في الرمال الزاحفة. «لم يعد هذا المنتجع مقصداً للزائرين.»

«لقد كان أتى على ذكره شخص أعرفه، قائلاً انه مكان يستحق الرؤية، وعندما وصلت إلى هنا اعجبني إلى حد رغبت في البقاء فيه.» وأشار بإبهامه من فوق كتفه إلى المنتجع، متابعاً: «ان قلب الرجل وروحه يهفوان إلى مثل هذا البيت، ولكن الاحلام هي التي تمسك به اليوم، فهو يستحق مصيراً اكثر كرامة من هذا الموت البطيء المؤلم الذي يحل به حالياً.»

فقالت توافقه على ذلك بحرارة: «هذا صحيح، لقد كان يوماً ما، منتجعاً خاصاً في منتهى الروعة، فالرجل الذي بناه، اعتاد أن يملأه بالزبائن من مختلف أنحاء العالم.»

فهز كتفيه: «وها هو ذا اليوم قد اصبح مهجوراً. هل يعيش هنا احد غيرك؟»

ولثانية واحدة، اخذت مارلين تتساءل عما إذا كانت من السذاجة بحيث تصدق انه غير مؤذٍ... وفكرت في ان تقول له ان ثمة عدداً من العمال مازالوا يعملون في المنتجع، ولكن كما كان سبق وأشار كان المبنى منهاراً من احد جوانبه، فالكذب لم يكن ليفيد، كما انه ينتهك مبادءها.

والأكثر من ذلك هو ان كلبتها التي كان تشعر باحتقار تام للناس الذين تكرههم، فتبتعد عنهم قدر إمكانها، كلبتها هذه

قد استقرت الآن عند قدمي هذا الرجل، وقد بدا على ملامحها كامل الثقة والإرتياح.

امام هذه البراهين الدافعة التي في صالحه، ولأن ميك هاميلتون قد اخذ يبتسم لها مرة أخرى، قالت له منحة شكوكها جانباً: «كلا، انا هنا وحدي مع كلبتي هذه.»

«ألا تشعرين بالوحدة؟»

«كلا، مطلقاً، فالهدوء والسكينة هنا يجعلان المكان لا مثيل له.»

«هذا حسن، انني أنا أيضاً بحاجة إلى بعض الهدوء والسكينة، من باب التغيير.»

فاتخذت مادلين هذا ذريعة لها لكي تنسحب برقة، قبل ان تقع في حماقة.

«حسناً ستجد الكثير من ذلك، فعدا عن التنزه على الشاطىء، ومراقبة الطيور، فليس هنا عمل يشغلك.»

أخذ يتأملها مرة أخرى، ثم قال بلطف: «آه، لا اظنني اوافقك على هذا، إن بإمكاني ان افكر في أشياء أخرى سارة للغاية لقضاء الوقت.»

كان تقربه اليها مهذباً تماماً، ولكن لم يحدث ان لمح اليها رجل بإنشاء علاقة معه في هذه الصراحة وذلك منذ انتهت علاقتها بمارتن، وان ذكرى المحنة التي عانتها بسبب استجابتها لإغراء مديح الرجل أول مرة، هذه الذكرى هي التي امكنتها من ان تقاوم ذلك الآن فتقول له: «انني واثقة من ان بإمكانك ذلك.» قالت ذلك ببرودة ثم استدارت مبتعدة وهي تشير إلى كلبتها لتتبعها.

ولكن ما راعها إلا ويده تضغط على كتفها توقفها عن

التقدم. وتملكها الارتباك، فعدا عن كونه وسيماً إلى حد لا يصدق، وهذا أسوأ ما يزكى به رجل، عدا عن ذلك لم تكن تعلم شيئاً عن هذا الرجل الذي كان يمسك بها بمثل هذه القوة. فقالت: «ارجوك، لا تفعل ذلك.»

فتركها على الفور وهو يقول بأسى: «هل ضايقتك؟ انا آسف فلم تكن هذه نيتي على الاطلاق.»

لقد شعرت عند ذاك، بأنها حمقاء حقاً، خصوصاً عندما وجدت ان كلبتها لم تهتم مثقال ذرة بجرأة هذا الرجل على لمس سيدتها. وقالت بابتسامة باهتة: «لا بأس.»

«كلا، لقد اخفتك بينما كان قصدي ان اجعلك تعلمين كم أنت امرأة جذابة تسرين النظر.»

فاحمر وجهها كفتاة في الثالثة عشرة، كما شعرت بوهن في ركبتيها.

«شكراً... عليّ ان... عليّ ان اعود الآن، ولكن إذا احتجت إلى أي شيء، اثناء اقامتك هنا، مثل استعمال الهاتف، أو مياه للشرب، فأنت تعلم اين أسكن.»

اجاب ونظراته تحوم فوق وجهها: «نعم، انني اعلم أين تسكنين.»

أخذ ميك ينظر اليها وهي تبتعد، وهو يكوّر شفتيه بصفير صامت، عندما حدثه صاحب المرآب عمن يعيش قريباً من هذا البيت، كان أول ما قفز إلى ذهنه صورة المرأة التي توقع ان يراها، جسم رشيق متناسق بشكل جميل، ما لم يبق معه في تلك الصورة مكان لعينين رقيقتين، خضراوين أو اهداب كثيفة اكثر دكنة في اللون من شعرها المتناثر حول وجهها.

ثم هناك حمرة الخجل! فالنساء هذه الأيام لا يعرفن حمرة الخجل عندما يمدحهن الرجال، ثم أين تجد الآن التنورة التويد والجاكيت الرصينة ثم بأي حق تتخذ لجنة التراث المحلي رئيسة جميلة جذابة بهذا الشكل؟

انها تنتمي إلى عصر آخر... قرن آخر! كيف بإمكانه ان يجادل امرأة يبلغ من رقة قلبها ان تقتني كلبة بثلاث قوائم والتي عندما دفعه الطيش إلى لمسها، طلبت منه ان لا يفعل ذلك؟ قائلة «من فضلك» بكل رقة؟

عاد عابساً إلى حيث كانت سيارته متوقفة، وقد استقرت في ذهنه خطة للهجوم، ان طلب ود جارته قد يعطي عكس النتيجة، ولكن كما يقول المثل (يستطيع الرجل ان يصطاد بالعسل من الذباب اكثر مما يستطيعه بالنحل.) ثم طالما انه لا ينسى أبداً ان عذوبة الحديث هي فقط وسيلة للنهاية... ففي هذه الحالة لديه الحق في ان يفعل ما يراه مناسباً باملاك سبندريفت... وبالتالي بإمكانه التغلب على أية تعقيدات قد تظهر.

أما ان يكتشف ان جارته هي فتاة شابة رائعة الجمال، فهذا أمر ذو فائدة واضحة، ما يجعل من مهمته أمراً مرغوباً اكثر مما لو كانت امرأة عجوز بشعة.

اخذت عملية املاك تايلور تأخذ في ذهنه شكلاً مثيراً، طبعاً بشرط ان لا يكون آندي لاثام قد سبق واكتسب مودتها، لأن ثمة حداً لما بإمكان ميك هاميلتون ان يتصرف به من سفالة، ذلك ان تعديه على امرأة رجل آخر هو شيء ليس في حسابه.

لم تكن مادلين تتوقع رؤيته مرة أخرى، ولكن بعد

العاشرة من صباح السبت ظهر ميك على عتبة بابها وهو يقول: «أرجو ان لا يكون مجيئي في وقت غير مناسب ولكنني جرحت اصبعي وأنا احاول فتح علبة قهوة.» ومد إليها ابهاماً ملفوفاً بمنديل ملطخ بالدم: «اظنه بحاجة إلى تضميد.»

فتحت الباب على اتساعه، ثم أشارت إلى المطبخ وهي تقول: «اجلس هناك وسأرى ما يمكن ان أجد. هل أنت واثق من ان الجرح لا يحتاج إلى خياطة؟»

«كلا، انه بحاجة فقط إلى ضماد لمدة يوم أو يومين.» ومد يده يلاطف الكلبة التي حيته وكأنه صديق قديم ضائع.

اخذت مادلين تبحث في صندوق الاسعاف الأولي عن ضماد ومحلول مطهر وهي تقول: «هذا يكفي دعني أرى اصبعك.»

ومدت يدها إلى ابهامه ولكنه جذبه بعيداً، نظر إلى محلول اليود المطهر بخوف وارتياب: «لا بأس، يمكنني ان اهتم به بنفسي، لو ان بإمكاني ان اغسله فقط...»

فكبتت مادلين ابتسامة. قد لا تستطيع الكلاب الضالة أو ضباط الشرطة الكارهين له، مواجهته، ولكنه يهرب خوفاً من علاج جرح بسيط، وقالت له: «هناك خزانة في الردهة يمكنك ان تجد فيها مناشف نظيفة.»

«شكراً.»

وضعت اثناء غيابه، إبريق القهوة على النار ووضعت في الفرن فطيرة مشمس. وعندما عاد كان ابهامه ملفوفاً بالضماد بينما كانت هي قد وضعت فنجانين على المائدة

ومناشف ورقية، وهي تقول له: «فكرت في انك بحاجة إلى شيء ينعشك.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة: «هل كل الرجال يشعرون بالجبن لمنظر الدماء ام انا فقط؟»

«انك اشجع من اكثر الرجال. لأنك ضمدت الجرح بنفسك.» وسكبت له القهوة ثم سألته: «هل تريد قشدة وسكراً؟»

فأجاب هازلاً: «أريد سكراً فقط، ثلاثة قطع، انني بحاجة إلى كثير من التحلية.»

لكنها كانت تراه حلواً بدرجة كافية، وان كانت تدرك انها فكرة مؤسسة على برهان ضئيل للغاية... لأن كل ما تعرفه عنه ان له طبعاً كريهاً ولساناً خبيثاً، ولعله من أولئك الذين يضربون زوجاتهم... وجعلها تفكيرها هذا تتساءل عما إذا كان متزوجاً. ولكن تقديم ضماد له لا يمنحها الحق في ان تتدخل في حياته الشخصية، ولكن بالنسبة اليه، لم يكن يشغل باله مثل هذا التحفظ بالنسبة إليها فسألها: «كيف كان موعدك الغرامي؟»

أجفلت ثم سألته: «موعد غرامي؟»

فقال ضاحكاً بوقاحة: «نعم، مع ذلك الفارس ذي البذلة الكحلية، فقد سمعت حديثه اليك، ذلك النهار، هل انتما الاثنان، كما يقولون، منسجمان معاً؟»

«أنا... لا.»

لم يفته ترددها هذا، فقال: «ولكن هل يميل اليك؟»

كان آندي قد سألها قبل ان ينزلها عند باب بيتها بعد العشاء منذ ليلتين، سألها برقة: «متى ستتزوجينني، يا مادلين؟»

ولم تكن هي المرة الأولى التي يعرض عليها فيها الزواج، كما انها ليست هي المرة الأولى التي كانت ترده فيها مازحة، بقولها انه متزوج فعلاً من وظيفته.

قالت لميك: «ان آندي صديق طيب، ونحن نعرف بعضنا منذ كنا أولاداً.»

«هل افهم من هذا انك مولودة هنا؟ وهل عشت دوماً في هذا المنزل؟»

نظرت حولها في انحاء هذا المطبخ الريفي الكبير الذي مضت فيه كثير من الأوقات السعيدة، كانت اثناء فصل الشتاء عندما تعود إلى البيت من المدرسة، كانت هناك نار مشتعلة على الدوام في مدفأة الحطب في الزاوية.

نكرياتها المبكرة عندما وقعت طريحة الفراش تعاني من التهاب الشعب، وكانت أمها قد لفتها بلحاف واجلستها على كرسي هزاز مازال موجوداً حتى الآن، وقد جعلتها رائحة اللحم الذي كان يطهى على الموقد، جعلتها تستسلم للنوم، وكانت اغاني العيد تصدر عن الراديو، ومنظر تلاعب اللهب يبدو من خلال زجاج النافذة السميك على باب المدفأة، كانت تتذكر انه كان يوم العيد عندما استيقظت، ووجدت نفسها قد تحسنت صحياً.

قالت تجيبه: «ما عدا سنوات الدراسة، وعندما تخرجت من الجامعة لم أعش في أي مكان آخر.»

فعبس وهو يقول: «ألا ترينه بعيداً بعض الشيء عن الجيرة؟ فأقرب بيت اليك يبدو مهجوراً منذ سنوات.»

«وهو كذلك. ولكن إبجووتر لا يبعد عن الطريق العام سوى خمسة اميال، وبإمكاني ان اصل إلى المدينة في

وقت قصير جداً، فأنا لست منعزلة إلى الحد الذي تتصوره.»

«لا اظنك كذلك مادمت تتحركين، ولكن ماذا لو حدث لك شيء فلم تستطيعي الوصول إلى الهاتف؟»

«سيفتقدونني في المدينة، ولا بد ان يأتي شخص ليطمئن عليّ.»

رد متهكماً: «مثل ذلك الفارس في البذلة الكحلية؟»

فنظرت اليه مستنكرة: «نعم، هو وغيره، فالناس هنا يهتمون ببعضهم البعض، وهذه احدى الصفات الجيدة للحياة في المدن الصغيرة.»

فقال باسما: «ان الطريقة التي تقولين فيها ذلك، تجعلني اشعر بأنك تجدين فيها عيوباً كذلك، ويسرني جداً ان اعرفها، ولكنني اخذت من وقتك ما يكفي هذا الصباح.»

نهض واقفاً وهو يتمطى، وعلى الفور تركت الكلبة مكانها في السلة قرب المدفأة، ثم تقدمت نحوه وهي تهز ذيلها بعنف، فانحنى عليها يفرك اذنيها مداعباً.

فقالت مادلين: «انها تحاول اقناعك بانها بحاجة إلى نزهة.»

قال: «انني لست بحاجة إلى كثير من الاقناع، فأنا احب الكلاب، ما الذي حدث لقائمتها؟»

«لقد اصابتها رصاصة اما من مزارع أو صياد، وذلك عندما كانت جرواً، وربما كان ذلك سبباً لخوفها من الضجة العالية، وقد وجدتها بجانب الطريق منذ اربع سنوات تقريباً، وكانت حالة قائمتها من السوء بحيث كان من الأفضل بترها.»

لقد كان مارتن قال ساخراً حينذاك: «هل انت معتوهة، ام ماذا؟ ان تجبير القائمة يكلف مبلغاً كبيراً من المال، واذا كنت تظنينني سأدفع الفاتورة، فانت مخطئة.»

ولكن ميك نظر إلى ماديلين بعينيه الرائعتين وهو يتمتم: «يا لك من امرأة فاتنة عامرة القلب بالرحمة.»

«شكراً.»

«ثم انها تحرسك جيداً، فالأحمق فقط هو الذي يحاول التعدي عليك في وجودها.»

فقالت: «لا يبدو انك تخاف منها.» واحمر وجهها عندما فكرت في ما قد تعنيه هذه الكلمات.

فضحك قائلاً: «حسناً، كلا بالطبع، لأنني لا انوي الحاق أي ضرر بك، وهي من الذكاء بحيث تعلم ذلك.»

كان رجلاً ظريفاً، ومصاباً أيضاً، والأكثر من ذلك انه كان على صواب، فالكلبة ستمزقه أرباً اذا هو حاول ان يؤذيها بأي شكل كان.

سألته: «هل لك ان تبقى للغداء، يا سيد هاميلتون؟»

وقف وهو يفرك بيديه، محاذراً ان يؤذي إبهامه، «كلا يا سيدتي، واشكرك جداً، فقد طال مكوثي هنا، على حال، وان كنت احب كثيراً ان اسمع المزيد عن منزلك القديم الجميل هذا.»

فقالت متخلية عن آخر أثر من تحفظها: «وانا أيضاً احب ان أريه لك، فتعال غداً حوالي الواحدة بعد الظهر، هذا إذا لم تكن مشغولاً.»

«انني لست مشغولاً.» وكان الآن قد وصل إلى الباب، فإذا به يستدير عائداً.

نظرت اليه ماديلين مستطلعة: «اهناك شيء آخر؟»

فقال وعيناه تتألقان تهكماً: «شيء واحد فقط، لا أريد ان اثقل عليك أو ما أشبه ذلك، ولكن هل لك بأن تخبريني باسمك؟»

فقالت ضاحكة: «ماديلين.»

واخذت تفكر بمبلغ حماقتها إذ لم تره أهلاً للثقة من أول مرة رأته فيها.

www.elromancia.com

الفصل الثاني

كانت مكتبة ادجووتر الرسمية والتي تحتل منزلاً رائعاً عمره قرن كامل، ويقوم في الجهة من ساحة السوق، لا يبدو عليها اثر لمرور الزمن. وكانت غرفها العالية السقوف تبرّد بمراوح قديمة الطراز في الصيف، وتدفأ بجهاز تدفئة قديم في الشتاء.

وكانت سلال من اشرطة معدنية مليئة بأزهار الفصل، معلقة على افريز سطح شرفة المبنى القائمة امام الباب الخارجي يفصل بين الواحدة والأخرى مسافة قدمين. وكانت ديليس ستيش، رئيسة امناء المكتبة، حريصة على ضبط المسافة هذه فلا تختلف ولو إنشاً واحداً، مرددة على الدوام: «إنني اريد مستوى معيناً لا يتغير.»

المستوى المعين يتضمن أيضاً عدم تشجيع الأقاويل، وقد يستمتع البعض بتبادل آخر الفضائح والشائعات القذرة، ولكن هذا لم يكن من عادة ديليس مطلقاً. فهي وحدها التي بقيت ثابتة على هذا المبدأ ما انقذ مادلين بعد أن ظهر خداع مارتن امام المدينة بأجمعها.

«هنا ليس مقهى أنشىء لتستمتعوا باغنيات الآخرين.» هذا ما كانت تقوله لأولئك الناس الذين اخذوا بعد أن شاعت الفضيحة، يتهامسون خلف اكفهم ويلقون بنظرات ذات معنى على مادلين كلما حدث أن مرت من أمامهم في ممرات المكتبة أو في غرفة المطالعة، ما جعلها تعتزل في المكتبة

بغرفها الهادئة وتلك الرائحة الخفيفة من العفونة التي تفوح من المجلدات وجلود الكتب القديمة التي تميّز مكتبات العهد الفيكتوري، ما يجعل المكان ملاذاً من السلام والنظام.

كان يوم الاثنين هو عطلتها الاسبوعية، ويوم الثلاثاء الذي تلا الغداء الذي تناولته مع ميك، ظهرت في عملها بوجه باسم. وكانت الابتسامة هذه ما تزال على شفتيها عندما دخلت سادي بروكس، صديقتها وسكرتيرة محافظ المدينة، في زيارتها اليومية المعتادة لها اثناء فرصة تناول القهوة الصباحية رغم ان عملها هذا لم يكن يرضي ديليس رئيسة امناء المكتبة.

همست لها سادي وهي تنحني فوق مكتبها: «فكرت في انك قد تحبين آخر الأخبار، لقد ألغى مجلس المدينة الأمر بمصادرة املاك آل تايلور فقد دفعت الضرائب المتأخرة بأكملها أمس.»

فقالت مادلين: «ما أجمل هذا. كلنا نعلم مبلغ الحجز على الأملاك.»

قالت هذا وهي تبتسم حالمة. لا يكاد ذهنها يقوى على استيعاب هذا الخبر.

أنزلت سادي نظارتيها اللتين كانتا على رأسها ووضعتهما على عينيها لكي ترى مادلين بشكل افضل، ثم قالت: «إنك لست كعادتك، هذا النهار، يا عزيزتي. لقد كنت اخبرتك لتوي بأن منتجعك الغالي لن يوضع في المزاد ليستولي عليه أحد ملوك المال قساة القلب. لقد كنت اتوقع منك أن تقفزي من الفرح بصفتك رئيسة لجنة التراث، اتراك وقعت في الحب أو ما أشبه؟»

أعاد هذا السؤال السخيف افكار مادلين إلى يوم الأحد، وفي لحظة غير معقولة اوشكت أن تجيب: «نعم.»

كان ميك قد برز على عتبتها في الموعد بالضبط حاملاً بيده غير المصابة زجاجة شراب التفاح. وسرعان ما اكتشفت أن الذاكرة لم تخنها. حتى وهي تفكر في انها هذه المرة شبه مستعدة لأية صدمة قد تصيبها منه، فإنه ما يزال يؤثر عليها بصفته أكثر من رأتهم من الرجال وسامة وذلك في سنيّها الثانية والثلاثين.

كانت تثق بقامتها البالغة مئة وخمسة وسبعين سنتمتراً طولاً بينما يشرف عليها هو بقامته الفارعة وبنيته القوية العضلات. وكان شعره ما يزال مبتلاً بعد اغتساله قبل حضوره وابتسامته بالغة الجاذبية وكذلك عيناه... ولكن أهم من ذلك كله عودة تلك المشاعر إلى نفسها مرة أخرى... ذلك الاحساس برابط يشدهما الواحد إلى الآخر.

ومرة أخرى تتغلب عليها اللعثمة والميل إلى الهذر كفتاة مراهقة، فقد كانت اشارت له بالدخول ثم بعد لحظة أو اثنتين من الارتباك عاد الحديث بينهما سهلاً طلقاً. ولم يكن الغداء قد قارب منتصفه عندما علم بأنها امينة مكتبة، وأنها قد اشتغلت بالمستوى الجامعي قبل أن تنتقل بوظيفتها هذه إلى بلدتها وعلمت عنه انه قد تفوق في العلوم السياسية والصحافة وقد سافر إلى كل أنحاء العالم بصفة مراسل صحفي.

قال لها وهي تريه أنحاء المنزل: «يبدو أن أوضاعنا متناقضة، أليس كذلك؟»

فقالت: «لا يبدو أننا نتشابه في أشياء كثيرة، أليس كذلك؟» وكان شعورها بالتجاذب بينهما قوياً للغاية.

فقال وهو يمر بيده باعجاب على خشب الدرابزين الماهوغاني الحريري الملمس: «أحياناً يكون التضادّ هو الذي... يوطّد العلاقة.»

سمعت في صوته نبرة مرتبكة وأدركت السبب، انه ضد ما يقال من أن من الممكن أن يتواجه غريبان لأول مرة فيشعران بأنهما يعرفان بعضهما البعض، رغم أن قلبيهما احسّا بالقول الذي يعني (وصلت إلى بيتك، فانتهى البحث).

سواء أكان ذلك عقلانياً أم لا... جانبية... اهتماماً... سمّه ما شئت... فقد امتد بينهما خط رقيق مشحون بالتجاذب.

ولكن... هل هو الحب؟

وأجابت على سؤال سادي وهي تحوّل نظراتها جانباً: «كلا بالطبع.»

ولكن سادي لم تكن بالمرأة التي يمكن أن يراوغها أحد إذا هي اشتمت رائحة الغراميات.

فقالت باسمة: «إذن فقد ابتدأت المواعيد الغرامية؟»

لكنها شعرت بخيبة الأمل ومادلين ترد عليها بنفس ابتسامتها، وهي ترى أن الكذب في ظرف كهذا، مسموح به: «كلا، ما الذي يجعلك تسألين هذا؟» ذلك أنها لم تكن تعتبر أن دعوة ميك لها لتناول عشاء من الشواء على الشاطىء يوم الجمعة يمكن اعتبارها موعداً غرامياً.

«لأن لديك نفس ابتسامة المحبين السعيدة.»

«ليس هناك قانون ضدّ الابتسام، يا سادي.»

فأطلقت سادي صفير استهزاء، غير مكترثة بديليس، ثم قالت: «إنك أمينة مكتبة ومن المفروض أن تبدي في مظهر علمي رصين، بل على العكس اراك على شيء من الغرور الآن إلى سهوم وما أشبه. وأنا متأكدة بأن آندي لاثام ليس هو سبب هذا التغيّر.»

«إن آندي رجل طيب، يا سادي.»

«ليس هناك شرر بينكما، يا مادلين، فدعي عنك محاولة حملي على التصديق بأن بينكما شيئاً من هذا.»

«أنا وآندي تجمع بيننا صداقة ومودة. فهو يدعوني إلى العشاء مرة في الأسبوع على الأقل. وغالباً ما نذهب معاً إلى السينما.»

فقالت سادي ساخرة: «إنني أزور جدتي أيام الآحاد، ونمضي وقتاً طيباً، ولكن جلوسك أمام آندي تراقبينه وهو يأكل لا يرفع الضغط لديك أكثر مما يفعل جلوسي مع جدتي.

إن ثمة نجوماً في عينيك يا عزيزتي وورود في خديك.» ووقفت واضعة يديها على وركيها، وهي تتابع قائلة: «انك تمثلين صورة مشرقة لما اعتاد أبي أن يسميه جمال الانوثة وليس لدي سوى نصيحة واحدة لك هي، استفيدي قدر امكانك من المسبب لهذا. لقد امضيت وقتاً كافياً في النواح على ما تعرضت له من خداع يا صديقتي، فإذا ما بدا في الافق شيء افضل فهللي له.»

ولكن آندي على كل حال لم يكن موافقاً على ذلك، كما اكتشفت مادلين عصر هذا النهار بالذات بعد العمل. فقد

كانت في موقف السيارات خلف المكتبة تبحث في حقيبة يدها عن المفاتيح عندما وقفت سيارته خلفها وهو يسألها مخرجاً رأسه من النافذة: «هل لديك وقت لتناول فنجان قهوة قبل أن تعودي إلى بيتك؟»

فابتسمت: «سيكون لدي الوقت أيها الضابط.»

وحالما استقر بهما المقام في مقهى بريمروز، قال لها: «نلك الرجل هاميلتون، أما زال يتسكع في الانحاء؟»

لم تكن تريد أن تمنحه فرصة ينصحها فيها بعدم جواز دعوة رجل غريب إلى الغداء دون وجود حارس خاص معها، فقالت متهربة: «هذا على حد علمي. لماذا تسأل؟»

«إنني اتساءل فقط.» وأخذ يقلب السكر في قهوته بقوة جعلت الملعقة تصطدم بحافة الفنجان عدة مرات، وهي عادة فيه عندما يكون في ذهنه أمر. وكان يتابع قائلاً: «لقد بحثت في أمر سيارته فوجدت انه كان استأجرها من محل للتأجير في فانكوفر الاسبوع الماضي وان لديه رخصة قيادة السيارة من كاليفورنيا وليس عليه غرامات في السنوات الخمس الاخيرة سوى غرامتي تحذير من السرعة.»

«إذن فهو كما كنت أنا توقعت شخص غير مؤذٍ.»

نظر إليها آندي مقطباً جبينه: «إن كلمة غير مؤذٍ، ليست كلمة أحب أن اطلقها على شخص مثله خصوصاً إذا كان لامرأة مثلك علاقة بالأمر.»

فقالت باستياء: «ما الذي تعنيه بقولك امرأة مثلي؟»

أخذ آندي يحرك قهوته مرة أخرى: «حسناً، انك مختلفة عن الاخريات.»

«مختلفة بأي شيء؟»

«إنك لست محنكة مثل... فولي سادي وهذا يجعلك ضعيفة بالنسبة إلى نوع خاص من الرجال.»

فقالت بحدة: «ما الذي تريد أن تقوله يا آندي هو أنه لأنني كنت اخطأت بالزواج من مارتن فلا بد أنني ضعيفة عن حمل المسؤولية كاملة وعلي أن لخبرك بأنني ابتدأت اكره موقفك هذا مني.»

فقال محتجاً: «حسناً، يا مادلين ان عليك ان تعترفي بأن مارتن وهاميلتون هذا يبدوان من نفس النوع.»

«هذا اسخف شيء سمعته. ان ميك هاميلتون لا يشبه مارتن بشيء. لا يشبهه على الاطلاق.»

«إنه شخص معسول الحديث إلى حد لا يعجبني وكذلك بالغ الثقة بنفسه. وأنت...» وضاقت عينا آندي تشككاً: «يبدو عليك الثقة التامة بشخص لا تكادين تعرفينه ام لعله فاتني لقاء لكما في مكان ما في الايام التي وقعت بين الجمعة الماضية وهذا النهار؟»

تمنت لو أنه يفسر الاحمرار الذي صعد إلى وجهها بعلاقة الغضب وليس الشعور بالذنب. لأنها كما طمأنت نفسها، لم تقم بما يؤدي إلى الشعور بالذنب.

وقالت: «لم يفتك شيء.»

فقال عابساً: «وهذا ليس من شأني، على كل حال.»

«إنني لم أقل هذا.»

«من غير الضروري أن تقوليه صراحة. فقد فهمت هذا من خلال قولك الصريح بأن ما تفعلينه وما ترينه حين لا اكون موجوداً هو من شأنك فقط وليس من شأن أحد آخر.»

«إننا، أنا وأنت غير مسؤولين عن بعضنا البعض، يا آندي.»

فحدق في قهوته واجماً: «أعلم ذلك. هل قال إلى متى سيبقى في هذه الانحاء؟»

«كلا، ولكنني لم اسأله. لم أر أن ذلك من شأني.»

فتنهد قائلاً: «هل تعدينني بشيء واحد؟ هل لك على الأقل أن تكوني حذرة؟ ان مجرد عدم وجود سجل اجرامي لديه لا يعني انه غير مؤذ، مهما كان رأيك فيه. انني اطلب هذا منك لاهتمامي بك فقط يا مادلين.»

مزق قلبها لاهتمامه بها فقالت: «أعلم هذا يا آندي وأنا لا أريدك ان تظنني ناكرة للجميل. ولكن عليك ان تفهم أنني لا اريد أن اقضي بقية حياتي متوقعة ان كل رجل اتعرف إليه هو نسخة كربونية عن مارتن. أو انني لكوني اخطأت مرة قد حكم علي بأن أكرر ذلك الخطأ، ضع في حسابك ان لي شيئاً من العقل.»

«إنه ليس عقلك ما يحملني على القلق، بل هو قلبك. فلو انك تعطيني إياه، فسيكون آمناً.» وتنهد.

رأت مادلين وهي تقطع الخمسة اميال في طريقها إلى جزيرة سبندريفت، رأت انه على صواب. فالمشكلة هي كما طالما قالت لها سادي ان الشرر الذي يكمن في علاقة رجل بامرأة هو شيء غير آمن. فهناك تيار خفي من الإثارة. ونوع من الخطر والمجازفة لاحيائه.

حتى زواجها من مارتن كان ينقصه ذلك العنصر الأساسي الذي يوحد بين شخصين غريبين. وإنما كان هناك في البداية على الأقل بعض العاطفة والرغبة ولكن

لم يكن هناك كثير من التقارب العقلي كلا ولا مفاهيم اخلاقية مشتركة.

وعلى كل حال عندما امتدت زيارة ميك لها يوم الأحد من ساعة إلى ساعتين لتنتهي بعد ثلاث ساعات، ذاقت نوعاً مما كان فاتها في الحياة الزوجية. ألا وهو حس من المشاركة الوجدانية مع ميك. وهي مشاركة لم تشعر بمثلها قط مع مارتن.

أدركت كل هذا وهي تدخل الطريق المؤدي إلى المنزل الريفي، وكل ذلك لأجل عينين زرقاوين رائعتين. رجل كرهه آندي بكل عنف ولكن كلبتها بيغليغ احبته للغاية.

وبيغليغ لديها، لحسن الحظ فطنة لا يعيبها شيء.

• • •

في الساعة السادسة من مساء الجمعة، جمع ميك الجرائد المبعثرة على المائدة الصغيرة في البيت المتنقل الذي يقيم فيه ثم وضعها كيفما اتفق في حقيبة اوراقه ثم دخل القمرة الضيقة والتي كانت حماماً يغتسل فيها.

كان يشعر بصداع من النوع الذي لم يستطع الاسبرين ان يشفيه. فهو نوع يصيب الشخص بسبب ضميره، وهو شيء ليس من عادة ميك هاميلتون ان يسمح بحدوثه. ولكن واقع أن نجاح المرحلة الثانية من عملية تايلور في الاسبوع الماضي قد ازعجه أكثر مما أراد الاعتراف به لنفسه. أما المرحلة الثالثة فستحدث بعد وقت قصير.

إن مادلين ستظهر على عتبة بيته في خلال ساعة وذلك دون ان يساورها اي شك في أن السبب الحقيقي لملاحقته

لها بهذا الشكل الجاد هو لإنهاء بقائه في هذه المنطقة بشكل سريع باعث على الرضا. نعم باعث على الرضا، لأن هذه الزيارات المرغم عليها إلى مدن صغيرة نصف مدفونة في الرمال، بسكانها ذوي المثاليات الحمقاء والذين ينصب اهتمامهم على بيوت متداعية ذات فخامة مر عليها الزمن. زيارات كهذه لم تكن من عادته او اختصاصه، ذلك ان هناك عالماً مليئاً بالمؤامرات والحروب والصراع الحضاري يقوم خارجاً على المسرح الدولي، ومقعده القائم في مكان يمكنه منه ان يراقب هذا كله عن كثب، ذلك المقعد ما زال في انتظاره.

لكنه لم يستطع أن يدير ظهره إلى أسرته. فإدموند لا يمكن لومه وهو ابن الواحدة والتسعين لانهيار صحته وضعف حواسه التي لم تعد بقوتها التي كانت عليها وهو في السبعين. فالحقيقة أنه قد انهار بشكل كامل تقريباً منذ رآه لآخر مرة منذ خمس سنوات، وفي الحقيقة أنه كان قد فقد قوة قبضته منذ حوالي العشر سنوات، تاركاً فلورا تتصرف بشؤونه بنفسها.

أما فلورا، وحاول ان يزيح جانباً ما اعتادت زوجة جده ان تثيره في نفسه من الضيق، ليس ذنبها ان ولدت مبذرة فقد نشأت كذلك، وكانت من الجمال بحيث يتسامح معها الآخرون بهذا الشأن.

وإذا كان قد وجد نفسه الآن في مأزق خلّف في فمه طعماً رديئاً، فهذا من فضائل فلورا. إذ أن السماح لها بالتصرف بالأموال دون رقابة كافية هو كمن يدع طفلاً حراً يلعب بالنار.

من يدري ما الذي كان سيحدث لهذين الشخصين، بعسرهما المالي هذا، لو ان ميك لم يجد نفسه في اجازة ما جعله يقرر القيام بإحدى زياراته النادرة إلى موطنه؟ ربما لو أن زياراته كانت أكثر تقارباً لما كان الآن غارقاً إلى عنقه في هذه المشاكل التي لم يتوقعها قط.

كان الحل لمتاعبهما قد بدا سهلاً تماماً في ذلك الحين. فخلال ساعات من معرفته بمأزقهما المالي، استقل الطائرة من سان فرنسيسكو إلى فانكوفر حيث استأجر سيارة رانج روفر وقاطرة التي اصبحت بيته للأيام التي كان سيحتاجها لتقويم الفوضى الناتجة عن عدم تسديد الضرائب وإلقاء نظرة عامة على الاملاك التي كانت السبب في كل تلك المحن والمضايقات.

وبعد ان امضى يوماً في قيادة السيارة، رأى بنفسه ان سنوات الاهمال قد حطت من شأن الأملاك كما كانت مرة وكان ذلك واضحاً لكل عين خبيرة. فقد كانت البراهين تصدمه في اي اتجاه استدار إليه. الفطريات التعفن، الانحلال... ومع كل اكتشاف جديد كان ذعره يزداد، يزيده المعلومات التي اخبره بها عمال الكاراج.

لقد كان العامل افضى اليه بقوله: «إنهم متنفذون اقوياء فأنت بحاجة إلى رخصة منهم كي تدهن باب بيتك عندما يقررون هم بأنه اصبح من القدم والبشاعة إلى حد تتمنى لو تشعل فيه النار.»

«هل هذا صحيح؟» كان هذا جواب ميك وهو يصمم على أن لا يسمح للجنة التراث أو غيرها بأن يخبروه بما عليه أن يصنع أو لا يصنع بالأملاك التي هي ملك لأسرته منذ عقود

من السنين. وكان يتابع قوله: «حسناً، إذا أنا قررت أن آخذ البولدوزر إلى ذلك المكان، فسأنهي كل شيء قبل أن تجد اللجنة وقتاً تمنعني فيه من ذلك.»

فقال له العامل العجوز: «هناك بعض الناس في المنطقة قد يوافقونك على ذلك. ولكن يا بني ان رئيسة تلك اللجنة ليست واحدة منهم وهي جارتك. ففي اللحظة التي تسمع فيها هدير محرك البولدوزر ستقيّد نفسها إلى العجلة الامامية قبل أن تستطيع أنت أن تلمس حجراً في المكان.»

«إذا هي حاولت ذلك، فسأطردها من املاكي.»

«لن يمكنك ذلك وهي الرئيسة. ان السيدة سلاتر تتملكها فكرة ان كل ما هو قديم هو ثمين ذو قيمة. فهي تلاحق اللجنة الآن منذ شهور لكي تحول مكان تايلور إلى مكان تاريخي اثري. وإذا كنت لا تصدقني فتثبت من الأمر في دار البلدية فهو مدون لديهم هناك.» ومضغ طرف شفته لحظة ثم أضاف عابساً: «إنهم يدونون في البلدية كل ذنب اقترفه رجل. إن علي ان اذهب الآن فقد كاد دارن أن يطردني من عملي السنة الماضية وذلك لأن تلك المرأة العجوز روبرتا باريش اشتكت من أنني اترك غرفة الغسيل قذرة حيث ان عملي هو فيها. علينا ان نواجه الأمر، يا بنيّ ففي هذه المدينة لا يمكنك ان تعارض دار البلدية كما انك لا تستطيع معارضة لجنة التراث وخاصة إذا كانت الرئيسة هي السيدة سلاتر.»

ولقد ثبت لسوء الحظ ان هذه الاخبار المقلقة صحيحة تماماً. فعندما ذهب ميك ليدفع الضرائب المتأخرة أجرى أبحاثاً وجد بعدها ان تعيين هذا المبنى بناء تاريخياً هو

أمر منتظر. وأي تغيير في البناء يلزمه رخصة من لجنة التراث. ان عليه أن يظهر في الاجتماع الشهري ويقدم طلبه شخصياً قبل ان يسمح له بأن ينقل حتى زجاج نافذة. والعقبة الكبرى، كما قالت له المرأة الشقراء الضخمة الجالسة خلف المكتب في دار البلدية، العقبة هي في اقناع رئيسة الجمعية.

عند ذلك أدرك انه إذا هو لم يقم بتصرف صارم، فسيضطر إلى التأخر هنا إلى وقت غير محدود بينما حقوقه تتأرجح أماماً وخلفاً. لقد شكر ميك الموظفة الشقراء ثم خرج وقد صمم على التغلب على أي عقبة تعترضه وذلك بأي وسيلة كانت وهذا ما جعله يصل إلى حيث هو الآن. ومسح ذقنه بمحلول بعد الحلاقة وهو يعد نفسه لتمثيل دور روميو أمام جولييت.

خرج من الحمام وهو يشخر باشمئزاز، وقد اسلم نفسه لمتابعة ما ابتدأه منذ اليوم الذي قابل فيه جارته الجميلة. انها قضية اولويات وواقع ان عواطفه كانت خامدة حيث ان فكره كان مشغولاً، فهو لا يريد الانزواء في هذا المكان الراكد الضيق الأفق حيث تنخفض به الحال إلى أن تصله الأخبار العالمية بشكل غير مباشر ما يتنافى مع عمله كمراسل عالمي.

نظر إلى الساعة ثم وضع بطانية صوفية على وجه سلة النزهة وفوقها جهاز راديو ثم تفقد الثلج في «الترمس» كيلا يذوب. وكان من قبل قد اختار ناحية للنزهة ثم اعد حفرة لاشعال نار الشواء. وكل ما هو بحاجة إليه الآن هو أن يبزغ القمر وتأتي السيدة.

وصلت هي حالما تبدد الشفق في ثنايا الظلام.

جاءت رشيقة انيقة وقد احمر وجهها وكأنها كانت تركض لكي تصل في الوقت المحدد.

قال لها وهو يقفز بسرعة إلى المرحلة الثالثة من (عملية تايلور): «يبدو عليك انك مستعدة تماماً للراحة والاستجمام هل كان العمل شاقاً هذا الاسبوع؟»

فقالت وهي تمرر اصابعها خلال شعرها الأسود الطويل، ثم ترخي الوشاح فوق رقبتها، قالت: «كان اسبوعاً عادياً.»

فقال: «وكذلك أنا.» قال ذلك وهو ينبذ من نفسه ذلك الإحساس بالذنب الذي يصر على تسميم ذهنه. «وإذا كنت مثلي، فإن آخر شيء ترغبين في التحدث عنه في ليلة كهذه، هو عملك. لقد كنت في غاية الشوق إلى رؤيتك مرة أخرى وذلك منذ يوم الأحد الماضي.»

رأى احمرار وجهها يزداد رغم صعوبة التثبت من ذلك في عتمة الغسق.

فقالت: «أحقاً؟ وكذلك أنا.»

«دعينا إذن ننسى كل شيء عن العمل ثم نركز اهتمامنا على التسلية والترويح عن النفس. لقد جهزت كل شيء على الشاطىء، ما عدا هذه الأشياء هنا. فإذا استطعت حمل البطانية والراديو، سأحمل أنا البقية.»

قالت وهي تنظر حولها عندما وصلا إلى المكان الذي كان اختاره من قبل.

«لقد ازعجت نفسك كثيراً. لم أكن اتوقع ابداً أي شيء بهذه الأناقة.»

فقال: «لماذا لا؟» وبسط البطانية لها لكي تجلس عليها واضعاً خلف ظهرها وسادتين، ثم اشعل شموعاً وهو يقول: «انك سيدة بالغة الرقة والأناقة وتستحقين مثل ذلك.»

فابتسمت له قائلة: «وأنت بالغ الشهامة.»

فابتسم لها بدوره وهو يرجو أن لا يبدو الخداع في عينيه.

الفصل الثالث

«سيكون عشاء بسيطاً.» هذا ما كان قاله عندما قدم إليها الدعوة، وهو يقول: «لا تنسي انني أعيش في كوخ متنقل.»

ولكنه كوخ احضر منه بطانيات من وبر الجمل، ووسائد محشوة، وفكرته عن البساطة كانت تتضمن أنواع المرطبات المبردة في الثلج.

كانت مادلين مسرورة لارتدائها كنزتها الكشمير وبنطلونها الصوفي المبطن بالحرير بدلاً من السترة الصوفية وبنطلون الجينز اللذين كانت فكرت في ارتدائهما، وكذلك مسرورة إذ دفعها الغرور إلى وضع شيء من العطر ومس اهدابها رغم سوادها الأصيل، بشيء من الكحل.

«احضرت لحماً للشواء.» كان يقول ذلك وهو يسوّي الفحم ويضرم النار.

«هذا رائع.»

كان يخرج من السلة الأشياء التي احضرها للنزهة وهو يتكلم طوال الوقت، أشياء ملفوفة افترضت هي انها بطاطا ولحوم، ثم صحون من الصيني واكواب بلورية.

قال وهو يفتح زجاجة عصير فاخرة: «رأيت ان نبدأ بتناول المرطبات، ثم السلمون المدخن إذ سيمر بعض الوقت قبل ان تجهز البطاطا.»

www.elromancia.com

كان الهواء ساكناً والأكواب تتألق امام لهب النار كالجواهر، بينما الدخان يتصاعد في أعماق ظلمة الليل.

ومن خلف كثبان الرمال، كانت الأمواج تتخبط مهمهمة، ولكن هذا الفراغ الذي كان ميك يجده تافهاً، بدا وكأنه امتلأ بسحر غريب جعل المكان يبدو وكأنه ليس من هذا العالم. اتكأت مادلين على الوسائد، وقد ازدهر في نفسها ذلك الاحساس بالاطمئنان الذي ساورها منذ رأته لأول مرة.

قال وهو يحرك مفاتيح الراديو إلى ان وجد محطة تذيع موسيقى كلاسيكية: «سنسمع شيئاً من الموسيقى، ثم نستقر في جلستنا هذه، هل هذه الموسيقى تعجبك، يا مادلين؟»

ورفع حاجبه متسائلاً، فأجابت، شاعرة بسعادة بالغة لجمال المنظر حولهما: «انها رائعة.»

كانت أضواء اللهب تتراقص فوق وجهه، مغشية ملامحه بالظلال، ما أسبغ عليها غموضاً محفوفاً بخطر مثير.

اتكأ على جانبه وهو يقول باسماً: «أرجو ان يكون العشاء لذيذاً.»

«إنني لست قلقة بهذا الشأن.»

فابتسم: «ربما عليك ان تقلقي، فشهرتي بالطهي غير سارة، ففكرت في ان مناظر مثل هذه...» وأشار إلى المناظر حوله. «قد تعوض عن ذلك وان كنت اظنها مألوفة بالنسبة اليك، وانت التي تعيشين قريبة من الشاطىء، وربما تأتين إلى نزهة كهذه ولو مرة اسبوعياً.»

اجابت: «نعم، ولكن عندما كنت في المدرسة الثانوية فقط، لقد كانت صديقاتي يأتين في عطلات نهاية الأسبوع اثناء فصل الصيف حيث كنا نقيم حفلات شواء على

الشاطىء، ولكن لم يكن هو الشاطىء الذي كان يجذبنا قدر ما كان يجذبنا منزل جيراننا.»

«يمكنني ان افهم السبب. فأنا أيضاً يتملكني افتتان غريب بالأمكنة القديمة المتداعية.»

«ولكن ذلك المنزل لم يكن دوماً كما هو الآن.» هزت رأسها وهي تتذكر كيف كانت الرهبة تتملكها، هي وصديقاتها، إزاء منتجع آل تايلور ذاك «في الماضي، كان يبدو لنا مثالاً للروعة المعقدة، ومن النوع الذي لا يفقد سحره الخلاب، واتذكر اننا تسللنا ذات مرة جميعاً إلى هناك ثم سبحنا في البحيرة.»

«هل قبض عليكن أحد؟»

«كلا، فقد كانت هناك حفلة أزياء تنكرية وكان الناس مشغولين باللهو في الداخل على ان ينتبهوا إلى ما يحدث في الخارج.»

ضحك قائلاً: «أراهن على انكن أنتن أيضاً استمتعتن بوقتكن.»

فقالت وهي تبتسم للذكريات: «كلا، في الواقع، فقد كنا نكاد نموت خوفاً من ان يرانا أحد، إذ كنا نتسلل خفية من بين الأشجار ثم نغوص في المياه دون ان نحدث صوتاً، بينما ننظر من فوق اكتافنا على الدوام لكي نطمئن إلى انه لم يشاهدنا أحد، لكن البهجة جاءت في اليوم التالي عندما اخذنا نخبر كل شخص آخر في المدرسة عما فعلناه. اظن لو كان قد سألنا احد، في ذلك الحين، عما نريده من الحياة ربما كنا اجبناه بأننا نريد ان نكون جزءاً من ذلك المجتمع الخلاب الذي اعتدنا ان نراه احياناً.»

«ربما كانوا كذلك اناساً عاديين تماماً.»

«ليس جميعهم. عندما جاءت والدتي إلى هنا لأول مرة عروساً، كان يتردد على المنتجع بعض الأسماء والوجوه المشهورة. نجوم سينما، سياسيون، وحتى أمراء.» سكتت لحظة إذ تذكرت أمسيات الشتاء عندما كانت فتاة صغيرة وكانت الرياح تصفر حول بيتهم الريفي. كانت اعتادت أن تتكور على الأريكة امام مدفأة غرفة الجلوس، ثم تستمع مأخوذة إلى والدتها وهي تتحدث عن تلك الأيام العظيمة، قد يكون المنتجع قد تداعى، ولكن حكايات مجده الغابر لم يمحها الزمن.

قال لها: «انك استغرقت فجأة في تأملاتك، هل الحديث عن هذا المكان قد أثار لديك ذكريات غير سعيدة؟»

«ليس الماضي ما يزعجني، بل المستقبل، على الأقل، بالنسبة إلى المنتجع.»

«وكيف؟»

فهزت رأسها: «لا تدعني أبدأ، انك جئت إلى هنا ناشداً الهدوء والسلام، وليس للإستماع إليّ وانا اتخبط بالحديث عن مواضيع تجلب لك الملل.»

فقال بهدوء: «لا يمكنني ان اتصور انني أشعر بالملل معك على الاطلاق، يا مادلين.»

فضحكت قائلة: «إذن فليس لديك مخيلة نشطة.»

«بالعكس، فهي حالياً نشطة للغاية.»

كان صوته منخفضاً حميماً، وعيناه مسمرتين على وجهها، ما شعرت معه بجفاف في حلقها وقد تبدد الهزل من نفسها، بينما كان هو يقول: «والأكثر من ذلك هو انني

مستمع جيد لو اعطيتني فرصة لذلك، وهكذا بدلاً من الخوف من ان تجلبي الملل إلى نفسي، لماذا لا تحدثينني عما يزعجك بالنسبة إلى المنزل الذي بجانب بيتك؟»

فتنها صوته ورأت نفسها تزداد انقياداً إلى جانبيته في كل لحظة تمر، وقالت بلهجة مترددة: «لا شيء مثيراً في ما سأقوله.»

فقال: «ليس من المفروض ان يكون هذا مثيراً، فالإثارة سبق وتملكتني تماماً الآن، وذلك فقط لجلوسي معك والنظر اليك.»

فتملكها الإرتباك، وتصاعد الإحمرار إلى وجهها، «شكراً... اظن...»

وسكتت لا تدري ما تقول.

«إنني بالإنتظار، يا مادلين.»

كانت ترتجف وهي تقول: «ان الرجل الذي يملكه لا يهمه أمره، فهو لم يأت لرؤية المكان منذ سنوات، وربما لا يهمه ان اصبح خراباً، تقريباً.» اندفعت بهذا الكلام، راجية ان يفهمه ميك، إذ انها في الحقيقة، لم تكن تفهم هي نفسها ما تقول.

تملكها الإرتياح وهي تراه يسألها بينما يضع شبكة الشواء على النار: «هل قال ذلك الكلام؟»

«انه ليس بحاجة إلى ان يقوله، فواقع أنه أهمله كل تلك السنوات، سببه واضح تماماً.»

قالت ذلك وهي تنظر معجبة إلى تقاسيم وجهه في ضوء اللهب المتصاعد حول اللحم، كان وجهه يبدو ارستقراطي الملامح. بدا لها فارساً منيعاً على وشك التحرك للحرب،

وعادت تتذكر انطباعها الأول عنه من القوة والسيطرة، «انك واثقة من هذا، أليس كذلك؟»

«نعم.»

فقال وفي صوته نبرة من فراغ الصبر فوجئت به نوعاً ما: «ان الطريقة التي قلت هذا بها، لتوك، وكأنك تنطقين من مركز السلطة الكاملة، وهي ان سبب اهماله له هو فقدان الاهتمام به.»

كان عليها ان تضع نهاية لاستغراقها في التأمل في مظهر ميك، ليس فقط لشعورها بالإرتباك وهي تكتشف انها فقدت تقريباً مجرى الحديث، بل لأن الحديث أيضاً كان غير واضح، ذلك انه ليس مظهر الرجل الخارجي هو المهم، بل ما هو عليه في داخله، وهو درس كانت تظن انها تعلمته منذ زمن طويل.

فقالت: «حسناً، ماذا يمكن أن يكون التفسير الآخر عندما ترى ذلك الرجل العجوز تايلور، لا يزعج نفسه بدفع الضرائب على المكان حتى وصل به الحال إلى حد خطر مصادرته من جهة مصلحة الضرائب وبيعه بالمزاد العلني لاستيفاء الدين؟»

اخذ يعمل ميك برهة في إعداد العشاء، ثم سأل: «الرجل العجوز تايلور؟»

«إنه المالك.»

«هل تعرفينه؟»

«ليس تماماً، انه يعيش في الولايات المتحدة، وهو منعزل الآن، ولكنني اعتدت أن أراه احياناً منذ سنوات.»

«من الواضح أنه لم يترك خلفه انطباعاً حسناً مادمت

تظنين انه أدار ظهره، وبكل بساطة، لهذا المكان، تاركاً إياه للخراب، دون ان يراجع نفسه في ذلك.»

فأجابت: «انني في العادة، لا افكر فيه على الاطلاق. ولكن هذا المنتجع هو موضع اهتمام بالغ مني، قد لا يهتم هو لما يحدث له، ولكنني أنوي أن أراه يرمم ويحفظ، ولو كان عليّ ان أحارب كل معارض لأجل هذا الأمر.»

«أحقاً؟» واخذ نيك يحدق في النيران وعلى وجهه تعبير غريب للغاية.

أمالت رأسها بحيرة، ذلك انه منذ لحظات كان قد اتهمها بأنها مشغولة البال، والآن اصبح هو المستغرق في أفكاره الخاصة. «اتراني قلت شيئاً ضايقك، يا ميك؟ يبدو انك...» واخذت تفكر في تعبير صحيح لأنها لم تفهم السبب الذي جعله يغضب، ومع ذلك فقد كان يبدو بالغ الجمود والتوتر، وأخيراً قالت بلهجة اعتذار: «يبدو انك قد انزعجت.»

فقال: «آسف، انه الألم في إبهامي، ذلك انني منذ جرحته والصدمات تحدث له في كل لحظة، انني لم اتعود عدم الحركة، حدثيني بالمزيد عن ذلك الرجل... ماذا كان اسمه؟»

«تايلور، إدموند تايلر.»

«هل كان واحداً من اولئك الناس المحنكين الشاعريين الذين كنت تعجبين بهم؟»

«لقد كان وسيماً جداً، كما اتذكر، طويل القامة فضي الشعر وذا منظر متميز عن غيره تماماً، كما كانت زوجته امرأة جميلة.» ونظرت مائلين إلى ميك بفضول: «هل أنت حقاً مهتم بهذا الحديث كما تبدو، أم ان استماعك اليّ ليس سوى من باب التهذيب؟»

فضحك. كانت اسنانه شديدة البياض، ومستقيمة تماماً، ثم قال يطمئنها: «ما كنت مهنباً قط لمجرد التهذيب، لقد كنت امضيت في الأسبوع الماضي جزءاً لا بأس به من الوقت جائلاً في أنحاء المكان، وسماع انطباعات شخص آخر عن تاريخه هو شيء ممتع، وهذا كل شيء، أنهي شرابك، يا مادلين، فاللحم قد قارب النضج وأنا لا أدري عنك، ولكنني أكاد أموت جوعاً.»

كان اللحم ناضجاً والبطاطا لذيذة، وقالت: «انها وليمة.»

«ولكنها ناقصة نوعاً ما.» عبس وقد كاد صحنه ينقلب في حجره. «ربما كان عليّ ان اقترح الذهاب إلى مطعم بدلاً من هذا.»

نظرت مادلين حولها، كانت الرمال تلتمع كالذهب في دائرة الضوء التي احدثتها النيران وكانت السماء من فوقهما تغمر فيها النجوم البعيدة إلى حد رهيب موحش بينما القمر يتلصص فوق الكثبان، ثم قالت: «لا استطيع ان افكر في مكان افضل من هذا، لقضاء مثل هذا الوقت.»

فقال باسماً: «حتى ولو كان المنتجع مفتوحاً للعمل ودعاك إليه كونت أجنبي؟»

فأجابت: «حتى ولا هذا.» لم يكن هناك كونت في مثل وسامة هذا الرجل الجالس أمامها.

قال لها: «ان لدينا هنا حلوى الفراولة المغطاة بالشكولاته.» وكان يبتسم لها بشكل أخاذ.

قالت له: «لست واثقة من ان بإمكاني ان آكل لقمة أخرى.»

«ان امامك خيارين، اما ان تأكلي الحلوى، وإما...»

نظرت إليه بسرعة، ماذا يعني؟ وشعرت فجأة بالخوف

من ان آندي كان على صواب وهو يتهمها بأنها سريعة الثقة، خائفة من ان تتعرض مرة أخرى لخداع رجل.

كانت عينا ميك تتفحصان وجهها، مخترقاً عينيها باحثاً عن القصة التي أحس بها مختبئة في اعماقها وخلف ملامحها.

ثم سألها برقة: «هل القصة تتعلق برجل، يا مادلين؟»

فحملقت به وقد تملكتها صدمة: «آه، وهل يكشف وجهي عنها؟»

«نعم، وللحظة واحدة فقط، هل يؤلمك ان تتحدثي عنه؟»

«ليس بالشكل الذي تظنه، فقد تعودت على ذلك الفشل.»

«فشلك أم فشله؟»

«فشلنا نحن الاثنين، لا يمكنك ان تحمل عبء زواج تحطم، طرفاً واحداً.»

«انني لم أتزوج قط، وهكذا أنا لست خبيراً، ولكن هناك كثيراً من الضحايا لا يتفقون معك في ما تقولين، يبدو ان هناك طرفاً واحداً هوالمسؤول غالباً، اكثر من الطرف الآخر، عن تحطم الزواج، وعندما يحدث فان...» وسكت يبحث عن الكلمة المناسبة. «ان الطرف الأكثر براءة هو الذي يبقى ليحمل الوزن الزائد.»

«الوزن الزائد؟»

«الندم، المخاوف، الصدمة لما حدث وكل الأشياء التي لمحتها فيك الآن. وربما لذلك شيء ضئيل من الحب رفضت أن يتلاشى.»

هزت رأسها بحزم: «آه، كلا، فهذا شيء أنا واثقة منه، بالنسبة إليّ، فقد مات ذلك الحب منذ زمن بعيد. ولكن

الأشياء الأخرى التي ذكرتها... نعم، لقد حملت حصتي منها.»

فقال ببطء وهو ينظر في عينيها: «بل انت مازلت تحسين ذلك، وهذا هو السبب في انني لن أتحبب اليك بكلمة غزل واحدة رغم رغبتي في ذلك. لأنك، سواء اعترفت بذلك أم لا، غير مستعدة بعد للتخلي عن ذكرى تلك التجربة.»

فقالت: «لا يمكنك ان تفهم، انها ليست من النوع الذي يسهل نسيانه.»

«إشرحي لي ذلك إذن.»

هل تشرح له انها كانت أسوأ نوع من الحمقى، إذ تقع فريسة لرجل كان لا يريد أن يرى عيوبه؟ وانها رفضت الاعتراف بأن الاختلافات والتناقضات التي قوضت ثقتها تدريجياً كانت هي علامة اضطراب الشخصية الخطير في الرجل الذي تزوجت؟ وهل سيظل ميك راغباً في التقرب اليها عندما يعلم كل هذا؟

المنطق يقول لها ان ميك هاميلتون ليس بالرجل الدائم الأهمية وهو سيخرج من حياتها بعد أسبوع أو اثنين. فالإنطباع الذي تتركه في نفسه عنها غير ذي أهمية. ولكن المنطق لا شأن له بتجاوبها مع الرجل الذي كان يراقبها بحدة في هذه اللحظة، أو للجوع الذي أثاره في نفسها.

وقال لها فجأة: «اظن الوقت قد انتهى، يا مادلين.»

كانت خيبة الأمل التي شعرت بها دون معنى، فقد كانت تنتظر نوعاً من التقارب الحميم بينهما، فكأن مقدرته على مقاومتها تعني نقصاً فيها اكثر مما كانت تتكهن.

أرغمت نفسها على ابتسامة تغطي بها ذعرها، وازداد

جرح شعورها عمقاً عندما تابع يقول: «لا أريدك ان تبتئسي بهذا الشكل. اننا نحن الاثنين، سنعلم عندما يحين الوقت المناسب وأثناء ذلك لدينا الكثير من انواع التسليات الأخرى. مثلاً...» وقدم اليها صندوقاً من الشكولاته المحشوة بالفريز «يمكنك ان تساعديني على إنهاء هذا واثناء ذلك يمكنك ان تحدثيني عن زوجك السابق غير المأسوف عليه.»

كان واضحاً انه ليس بالرجل الذي يمكن تجاهله، فقالت له: «لماذا تريد ان تعلم عنه؟»

«يمكنك ان تردي ذلك إلى الفضول المطلق. انني أراك... المرأة الموجودة هنا، بالغة الأهمية، فأنا أريد ان اعرف الأحداث التي كونت شخصيتك.»

تنهدت واجابت: «ربما بعد ان اخبرك ستجدني كريهة للغاية. فهي ليست قصة جميلة.»

«من النادر ان تكون للزيجات المحطمة قصص جميلة، يا مادلين، خصوصاً إذا كان الشخص من النوع القديم الطراز الذي يعتقد ان التعهدات الزوجية تدوم مدى الحياة، وأنا لا اظن هذا الوصف يلائمك.»

فقالت شاعرة بالحيرة مرة أخرى لنفاذ بصيرته: «نعم، وربما هذا ما منعني من مواجهة رجل من نوع مارتن، لقد اهتزت كرامتي بعنف عندما أدركت كيف سمحت لنفسي بأن أقع في مثل هذا الخطأ.»

«ما الذي فعله؟ هل نهب مصرفاً؟»

لم تسمح لها خشونة طرح هذا السؤال بمزيد من الإرجاء، فقد حان وقت قول الحقيقة، فقالت وهي تبتلع

الغثيان الذي صعد إلى حلقها: «أسوأ من ذلك. لقد كاد يقتل نصف أولاد المدينة.»

• • •

تمنى ميك لو انه لم يسأل، الشؤون الزوجية تتحدث عن شؤون منافية مثل الخيانة الزوجية أو ان يهرب بمال الزوجة... ولكن الإجرام؟ وجاهد ليخفف من الصدمة التي شعر بها، لأنه لا يستطيع ان يدع ذلك يحوله عن العمل الذي اصبحت كراهيته له تزداد دقيقة بعد أخرى.

فسألها: «اظنه لم ينجح في ذلك تماماً.»

«كلا لحسن الحظ، ولكن الكوابيس مازالت تتملكني عن كيف أوشك على ذلك.» وتنهدت «ولا أدري كيف ينام آباء اولئك الأطفال في الليل.»

سألها: «ماذا حدث؟» كان يعلم انها قامت برحلة طويلة في اعماق ذاكرتها وانها عائدة منها الآن، وكان طريقها الوحيد للخروج من ذلك هو متابعة الكلام.

قالت: «كان كاذباً مزيفاً، كان منذ البداية في كل ما قاله أو فعله، كاذباً، كان من المفروض انه مهندس، قال انه تخرج أول صفه، قال انه تعب من كثرة تهليل الناس لنجاحه، كما انه تعب من الناس الذين يهتمون بمهنته اكثر من شخصيته، وعندما علم انني من مدينة صغيرة إدعى انه يحسدني على حياتي البسيطة، ذلك ان حياته كما قال كانت دوماً عالية المستوى، وذلك منذ طفولته. فقد طالما قال: «لقد ولدت وفي فمي ملعقة من فضة، وبعد فترة اصبحت الحياة غير سائغة، بالنسبة إليّ، فأنا مستعد للإستقرار في حياة اكثر بساطة.»

«وهل فعل؟»

فقالت بمرارة: «كان مختبئاً من تعاقب الفشل، فكان ان قدمت إليه غطاءً كاملاً. وبعد شهر من تعارفنا تزوجنا وعدنا إلى هنا للعيش، إلى هذه المدينة التي عرفت واحترمت أسرتي لمدة عقود من الزمن، وقد وجدها هو ملائمة تماماً، ولم يحدث قط ان سأل احد عن أصله، وتحركاته. لقد كان زوجي ولهذا مفروض ان يكون رجلاً طيباً، وكان هو فاتن الشخصية مقنعاً للغاية.

«هل كان يحبك؟»

فضحكت: «لا تكن غبياً، انه لم يحب سوى شخص واحد، وهو نفسه، لقد كان يصدق كل أساطيره أو على الأقل، أرجو ان يكون صدقها فعلاً وإلا فهو حقاً مجرم يقتل بكل اعصاب هادئة.»

«هل هو وراء قضبان السجن، يا مادلين؟ وهل هذا ما يشغل بالك؟»

«من المفروض ان يكون كذلك، ولكن كلا، فهو هناك في مكان ما، ربما قد شق طريقه بكلامه المعسول إلى قلب امرأة أخرى، حتى انه قد يكون...» وارتجفت «يمثل نفس الدور الذي مثله هنا.»

«لا افهم، فهو اذا كان مذنباً بالشكل الذي ذكرته، لماذا لم يحاكم ثم يسجن حيث لا يستطيع ان يؤذي احداً مرة أخرى؟»

«انه لم يكن يجول في الأنحاء يلوّح ببندقية أو يهدّد احداً بشكل مكشوف، ربما كان هذا افضل لو انه فعله، لأن ذلك، على الأقل يعرضه لإنذار أو التوقيف عند حده، كلا، لقد كان اكثر دهاء من ان يفعل ذلك.»

كانت قد وصلت الآن إلى العقبة النهائية، وذلك بالنسبة إلى مواجهة الجريمة الحقيقية، وكانت تحاول بكل الطرق التي تعرفها ان تروغ منها. وبدا الرعب والتوتر في وجهها، تاركاً ملامحها الجميلة شاحبة متقلصة.

لم يكن بإمكان ميك ان يساعدها سوى بطريقة واحدة، ألا وهي تبني الطريقة المعتادة بأن يتوخى القسوة بدلاً من الرقة. فقال بإصرار: «ما الذي فعله، يا مادلين؟»

«لقد تطوع بتقديم خبرته ليصمم قاعة للألعاب الرياضية لأجل مدرسة ابتدائية، ثم رفض ان يأخذ دولاراً واحداً أجرة.» قالت ذلك بصوت رتيب النبرات، ما نكره بشخص يتلو حكاية قبل النوم... ما عدا ان هذه كانت تتعامل مع الواقع، وتابعت تقول: «كان بطلاً محلياً، تماماً... بطلاً لكل شخص آخر اشترك في هذا المشروع.

لقد استأجر، وألهب المشاعر وناقش، ونظم ورفع المخصصات المالية وتسلم الحق في التصرف الذاتي بإنفاق إيراد المشروع، ذلك لأن الناس كانوا من التأثر بكرم هذا المحسن، أبعد من ان يوجهوا إليه اهانة بطلب كشف بالنفقات، وقد اجريت له مقابلات في الراديو والتلفزيون، ولم يمض وقت طويل، حتى اصبح اسمه حديث الناس في البيوت حتى لم يبق غلام في هذا المجتمع لم يعرف من هو ذلك السيد الطيب كوربير، فهو الرجل الذي منحهم قاعة الرياضة والتي كانت الحكومة اعلنت ان بناءها يكلف الكثير الذي لا تستطيع هي دفعه.»

«هل اصابه الملل في منتصف الطريق، فهرب بالمال، تاركاً عهوده التي اخلفها، وراءه؟»

«كان يمكن ان يحدث هذا، ولكنه كان اكثر خداعاً ودهاءً من ان ينزل بمستواه إلى هذا الحد... رغم انني لم أدرك هذا في ذلك الحين. كلا، لقد استمر المشروع، وبنيت قاعة الرياضة واعلنت حفلة الافتتاح، كانت قائمة المدعوين طويلة حاشدة بالأسماء المحلية البارزة وممثلين عن كل المستويات الحكومية، وكانوا كلهم هناك لتكريم رجل واحد هو مارتن كوربير.»

«يبدو ان ثمة شيئاً قد حدث فغير كل هذا. ما هو؟»

«لم يحدث أي شيء.» كان صوتها قد تغير إلى همس. «لقد كان المطر قد هطل بغزارة طوال الأسبوع الذي سبق حفله الافتتاح. وقبل الاحتفال بيومين إنهار سقف القاعة، بالضبط بعد ان كان حوالي الستين ولداً يغادرون البناء، البعض منهم اصيب بجراح، واحد منهم سيبقى متحركاً على كرسي ذي عجلات بقية حياته.»

أحال ضوء اللهب الدموع على وجنتيها إلى ذهب سائل، كان الرعب الصامت الذي لاحقته اسئلته قد أقحمها في مثل هذه الذكريات المعذبة: «لقد كان تصميم المبنى بأجمعه دون المستوى، الألواح الفولاذية التي كانت تسند السقف كانت غير كافية، وطبعاً التهبت مشاعر الناس... لجان فاحصة من البلديات جاءت للفحص، انتقادات جمة لقوانين البناء، كما رفعت دعوى في المحكمة.»

وأخفت وجهها بين يديها وكأنها تخفي بهما ما تشعر به من رعب وإذلال، «ولكن الشخص الذي كان ينبغي حقاً، ان يلام، قد هرب من المشهد، اختفى ليلاً دون ان يترك أثراً.»

«لا بد ان ذلك قد حطمك.»

«لقد ملأني من الشعور بالعار، والرعب والحقارة اكثر من ان تستطيع وصفه الكلمات، خصوصاً بعد ان اكتشفوا انه ليس كما ادعى بنفسه، وان ليس له الحق بالألقاب التي اسبغها على نفسه، أثبتت التحقيقات انه كان رسب في السنة النهائية من دراسته الجامعية، وان الشهادة المؤطرة المعلقة فوق مكتبه هي مزيفة، ومقلدة بمهارة بواسطة اناس اختصوا بمثل هذا التزييف.»

«وهكذا لم يكن هناك بوليصة تأمين؟»

«كلا على الاطلاق، ولا الاموال المستحقة في المكان بأجمعه لمتعهدي مواد البناء، والمقاولين، والتجار، هذا عدا عن الدعاوى التي اقامها آباء الأولاد الذين أصيبوا في الحادث، لقد استلمت البلدية الأمر، حيث دفعت خارج المحكمة بالتراضي مع المستحقين مئات ألوف الدولارات.»

«وبكلمة أخرى، انتهى الأمر بالناس الذين اصابهم بالضرر إلى الخسارة من طرق كثيرة.» وعبس ميك مشمئزاً. وهو يتابع: «هل حاول احد ان يبحث عنه؟»

«نعم. وزيادة على ما اصابني من خزي، شعرت جزئياً بسرور خفي لعدم العثور عليه، لقد شعرت بأنه لن يمكنني قط النظر إليه مرة أخرى، ولكن من السهل ان يختفي شخص ما من على وجه الأرض، إذا حاول ذلك بكل دهاء، وقد يكون مارتن في أي مكان في العالم، يعمل تحت اسم مستعار، ويخطط لنفس العمل دون ان ينتبه إليه ضحاياه إلا بعد فوات الأوان.»

اخلدت إلى الصمت وهي تبتعد عنه، رابطة، بذهن غائب،

كنزتها حول وركيها دافعة إلى الخلف خصلات شعرها الرائع التي أفلتت من الوشاح الذي يربطه.

أخرج ميك آخر شيء من سلة النزهة، وهو ابريق مليء بالقهوة، ثم قال وهو يناولها فنجاناً: «اظننا نحن الاثنين بحاجة لهذا.»

قبلت الفنجان دون النظر إليه هو، وهي تسأله: «هل كنت ستحمّل نفسك كل هذا الإزعاج في التحضير لمثل هذا العشاء لو كنت علمت مسبقاً أي حمقاء دعوتها لتشاركك إياه؟»

ولكن ان يكون المرء أحمق هو خير من ان يكون وغداً متآمراً يضع الخطط، كيف ينجو من العقوبة متنمراً ساخطاً على ما فعله زوجها السابق بينما افعاله هو لا تصمد إزاء الفحص؟

تمنى لو بإمكانهما ان يبدآ من جديد... لو انهما كانا تقابلا في ظروف مختلفة... أو حتى من الأفضل لو انه كان قد بقي في يوغوسلافيا جاهلاً ما كانت غارقة شؤون جده فيه من فوضى.

لقد اكتشف، بعد فوات الأوان، ان ليس لديه رغبة في جر امرأة بريئة إلى المشاكل وذلك تحقيقاً لاغراضه.

قال لها محتجاً: «ولكن اللوم لا يقع عليك لأجل أي مما حدث، يا مادلين، دعي عنك هذا. فقد انتهى كل شيء.»

فصرخت بحرارة: «كلا، انه لم ينته، ألا ترى ان الأمر لا يمكن ان ينتهي أبداً بالنسبة إليّ ما دمت أسير في الشارع الرئيسي للمدينة فأصادف الناس الذين تضررت حياتهم لأنني احضرت إلى مجتمعهم رجلاً مجنوناً بالعظمة، وذلك

الصبي الصغير الذي سيمضي حياته فوق كرسي بعجلات... انه في العاشرة فقط، يا ميك، انه لن يركض ابداً بعد الآن على رمال الشاطىء... لن يلعب أبداً بكرة القدم... لن يسير ابداً...»

«كفى.» ووضع فنجانه بعنف على الرمال، ثم امسك بها من كتفيها يهزها دون رقة: «ان لديه ما يكفيه الآن وهو ليس بحاجة إلى تحميل نفسك عبء الشعور بالذنب تجاهه، هذا كما انه يستحق اكثر من ان يبقى موضوع شفقة منك.»

«يا ليت بإمكاني الاقتناع بما تقول، ولكنني لا استطيع في كل مرة أراه...»

«إذن عليكما ان تتركا المدينة أنتما الاثنين فهذا أفضل، وابدآ من جديد في مكان آخر.»

اطلق هذه النصيحة بعنف شديد، لاجئاً إلى الغضب في الوقت الذي كان كل ما يريده هو ان يمسح تعاستها ويخبرها بأنه يراها، من الشجاعة والرقة، اكثر مما تستحق هذه المدينة الصغيرة، ولكنها خلصت نفسها منه مبتعدة، وقد بدا عليها الرفض العنيد لأي تسوية أو حل وسط أو حتى التفكير في هذا الموضوع.

وهزت رأسها قائلة: «لا استطيع ان أرحل، ان لدي ديناً عليّ ان أؤديه.»

«اتعنين مالاً، يا مادلين؟ ما هذا؟ انك تتحدثين عما يعادل ثروة صغيرة، ليس هناك شخص في كامل عقله يتوقع منك ان تدفعي ثمن ما اقترفه زوجك السابق. فأنت مجرد ضحية له كغيرك.»

«أنا لا أعني المال.» واستدارت إليه وقد توهج وجهها

تحت ضوء اللهب، فرأى عينيها قد عادتا تتألقان بالدموع مرة أخرى. «انه دين يتعلق بالضمير، ان ترك المدينة لا يعفيني من الاحساس بالمسؤولية الأخلاقية.»

اسأليني انا عن ذلك... أخذ يفكر في هذا بحرارة. ذلك ان شعوره الآن هو انه يتمنى لو تخلى عن يمينه في سبيل أن يتمكن من الهرب من مسؤوليته الأخلاقية دون أن ينظر إلى الخلف.

www.elromancia.com

الفصل الرابع

لم يكن بإمكان مادلين ان تعلم مقدار الإشمئزاز الذي شعر به ميك نحو سلوكه هو على ضوء سلوكها، أو كيف أوشك في تلك اللحظة على الاعتراف، ولكن شيئين كانا منعاه من ذلك، على كل حال، الأول هو ان وضعها الآن يكفيها دون اضافة عبء آخر إلى ذكرياتها يتعلق بخداعه وغشه لها، والثاني هو انه بعد تأثره بشجاعتها وانوثتها، كان يعلم جيداً ان تأثيرها عليه لا يمكن ان يكون مجرد تأثير عابر سريع الزوال.

لم يكن العالم مكاناً رائعاً شريفاً كما جعلته هي يبدو، بل كان قاسياً عديم الاحساس، والطريقة الوحيدة التي ينجو فيها الشخص من كل ذلك، هو ان يهتم بنفسه وبمصالحه، وفي حالته هو يعني ان يتخلص من العقبات التي تمسك به هنا وبهذا يمكنه ان يعود إلى دنيا الإثارة التي هي مصدر الطاقة لوجوده.

قال لها والندم يثقل كلماته: «نعم، ان الشخص رجلاً كان أم امرأة، عليه ان يقوم بما عليه عمله، ولكن السؤال في حالتك انت هو إلى متى؟»

«إلى ان اشعر بأنني عدت إلى طبيعتي، إلى ان اشعر بأنني أعدت شيئاً إيجابياً يعوّض هذا المجتمع ما أخذه مارتن منه.»

ورأى ميك انها تعرض نفسها بكل وضوح للاستغلال،

ولكن لم يكن بامكانه ان يدع نفسه يغضب لهذا الأمر... ليس فقط لأنه لم يكن في نيته ان يسمح لنفسه بمثل ذلك النوع من التدخل الشخصي معها، ولكن أيضاً لأن سلوكه الشخصي جعله آخر من يحق له في هذه المدينة ان يغضب من تصرفها، وهكذا لجأ إلى حكمة أقل نفاقاً فقال: «ان ما يشعر به الناس نحوك، ليس هو موضوع البحث، يا عزيزتي، وانما ما تشعرين به أنت نحو نفسك هو المهم.»

وعندما استدارت لتواجهه، كان شعرها قد اخذ يتوهج بضوء النار التي اخذت تخمد: «انني أرى نفسي حمقاء في منتهى السذاجة وذلك إلى حد لا يمكن تصديقه.»

لكنه كان يرى فيها امرأة حساسة مراعية لمشاعر الآخرين، ما يجعلها تستحق من الحياة اكثر من هذه المرارة المتخلفة عن زواج فاشل، وكاد يقول ذلك لولا انه رأى ان ذلك سيكون بعيداً عن الحكمة، قدر بعد الحكمة عن تصرفه لو انه أطاع رغبته في الامساك بخصلات شعرها التي تنسدل على ظهرها. وأذكى ما بإمكانه ان يقوم به هو ان يضع نهاية لهذا المساء قبل ان يتورط في مشاعر تتحكم بنهاية كل هذه الأمور وذلك قبل ان تنهض عن الأرض.

كان مايزال يبحث عن طريقة حاذقة لتحقيق ذلك، عندما وفرت هي عليه عناء ذلك، ناولته فنجانها ثم اخذت تنفض الرمال عن بنطلونها وهي تقول: «لقد تأخر الوقت، وعليّ ان اعود، ان بيغليغ...» ورغم ما هو فيه، فقد سحرته ابتسامتها وهي تتابع: «حسناً، انك تعلم ما يحتاجه الكلب قبل ان ينام في الليل.»

انحنت تلملم ما تخلف من الوليمة، بينما كان هو

يراقبها، بالرغم منه، مذهولاً بالرشاقة والأنوثة التي كانت تتجلى في كل حركة منها، كانت كتفاها الرقيقتان اضعف من ان تستطيعا احتمال ثقل ذلك الشعور بالذنب الذي قررت ان عليها حمله، وانخفضت نظراته إلى ظهرها وخصرها حيث تسمرت هناك.

قال لها: «دعي عنك كل هذا، وانا سأهتم به فيما بعد.»

وفعلاً كان شعر بعواطفه تهفو اليها إلى حد بالغ، وقبل ان تتحول المشاعر إلى عمل، مد يده ينهضها على قدميها قائلاً: «سأوصلك إلى باب بيتك بأمان.»

«لا حاجة بك لذلك.»

«انني مصر على ذلك.» قال ذلك وقد شعر بالألم لرفضها هذه اللمحة المخلصة الوحيدة منه نحوها طوال هذه الأمسية.

أخيراً قالت: «لا بأس، شكراً لك.»

سارا على طول الشارع عائدين إلى بيتها، وقد حرص على إبقاء مسافة قدم أو اكثر بينهما اثناء الطريق، حتى عندما انزلقت قدمها وأوشكت على السقوط، مد يده يسندها، ثم عاد فتركها بسرعة خالية من الشهامة، لأنه رغم كل تعقله، كان حس الشهامة لديه مهدداً بالتنحية جانباً إزاء رغبته الجارفة نحوها.

قالت مرة أخرى وهما يصلان إلى الممر المؤدي إلى بابها الخلفي: «شكراً، لقد أمضيت وقتاً ساراً.»

فقال وهو يبتلع ريقه: «وكذلك انا.»

«كما قلت سابقاً، انت في غاية الشهامة... خصوصاً إذ استمعت بصبر إلى حكاية أحزاني.»

«اخشى أن اكون ايقظت في نفسك بعض الذكريات المؤلمة.»

فقالت: «ربما بإخراجها من الاعماق، والنظر في أمرها، يتمكن المرء من التخلص منها، تصبح على خير، يا ميك.»

كانت سيدة كاملة، قدمت له عذراً كاملاً للانسحاب، ولم تكن لديه نية في تجاهله، ولا في زيادة الوضع رهافة ودقة، ذلك ان التحطم البطيء الذي رآها فيه، والحزن الذي يبدو في زاويتي فمها الممتلىء الجميل، هو الذي اهلكه وكذلك منظر الدموع في عينين هما من الاتساع بحيث تحركان الحجر.

كان أي مقدار من الاشياء الأخرى، هذا اذا كان يبحث عن مبرّر لما كان يتطلع اليه، ولكن الأغلب هو ان نفس ذلك الاندفاع الجامح الذي سبق وقمعه، هو الذي هزمه، إذ أوهمه ان تقارباً عاطفياً لا يسبب أي ضرر.

وهكذا قال لها: «هل تسمحين لي بالمبيت معك؟»

أجابت وهي تبتعد عنه: «لو كنت اعرف ان هذه الدعوة إلى العشاء، ستنتهي بك إلى هذا الأمر، لما وافقت على الخروج معك.»

تملكه شعور بالتعاسة وهو يرى نفسه يفسد كل شيء، بقي واقفاً وقد تجلى الندم في ملامحه، منتظراً منها الصفح عنه.

ولا بد انها أحست بشعوره هذا، لانها واجهته مستقيمة الكتفين رافعة الرأس، وهي تقول بلهجة حازمة: «لا بأس، لقد صفحت عنك، يا ميك، والآن عد إلى بيتك، لأنني أريد ان انفرد بنفسي.»

«حسناً، انني ذاهب، تصبحين على خير، يا مادلين.»

• • •

«هل سأراك مرة أخرى؟» رن هذا السؤال في ذهنها بعنف جعلها تتساءل عما إذا كان ميك قد سمعه، ولكن لو كان ذلك حدث لظهر دليل ذلك على وجهه، وهبط الدراجات ثم عبر الفناء وكان آخر مظهر له رأته هو وضعه يديه في جيبي بنطلونه وهو يسير على الشاطىء بخطوات واسعة وكأنه يخاف من ان تستحيل رماله إلى رمال متحركة تبتلعه إلى حيث يموت مختنقاً.

استدارت وقد اذهلها ما تشعر به نحوه من عاطفة عنيفة، بعد انهيار زواجها من مارتن، قررت شيئاً واحداً وهو ان لا تتصرف أبداً مرة أخرى تصرف الطائشات، ما يجعلها تفقد احترامها لنفسها.

حسناً، لا بأس إذا كان ذلك عن قناعة، فهذه المرة كان هذا الرجل يختلف عن مارتن اختلاف الليل عن النهار، ثم ان ميك هاميلتون سيخرج من حياتها بالسرعة التي دخل فيها، ولن يعرف احد قط ما حدث بينهما، وكل ما في الأمر هو انه سيأخذ معه جزءاً كبيراً من قلبها.

لم تره مرة أخرى أثناء عطلة نهاية الأسبوع. مر السبت والأحد دون ان يزعجها رنين الهاتف أو جرس الباب، وتملكها الذعر لما شعرت به من خيبة أمل لهذا، لقد شعرت بفراغ وحزن وكأنها فقدت حبيباً كان أمضى معها دهراً طويلاً، وليس رجلاً غريباً لا تستطيع بعد ان تحكم عليه، كان هذا الأمر منافياً للطبيعة والعقل، ولهذا عليها أن تكون

مسرورة، ذلك ان غيابه وفر عليها الشعور بالإذلال إذ تواجهه مرة أخرى.

حتى حضور سادي إلى المكتبة صباح يوم الثلاثاء، لم يكن له نفس التأثير الفكه المعتاد، لقد ألقت نظرة على وجه مادلين، ثم قالت: «ما بالك وكأنك خارجة من القبر؟ ماذا حدث؟»

«لم تمرّ عليّ العطلة الأسبوعية كما كنت توقعت.»

فتأوهت سادي: «ربما هذا وقت غير مناسب لأخبرك فيه بآخر الأخبار إذن.»

سألتها مادلين وهي تفهرس كومة من الكتب الجديدة، تقنع بذلك ديليس بأنها تقوم بواجبها، سألتها قائلة: «ولماذا لا؟»

«لقد بيعت املاك آل تايلور.»

فرفعت بصرها وهي تقول بعنف: «ماذا؟ وكيف عرفت ذلك؟»

«لقد تناولت القهوة هذا الصباح مع فتيات من لاندتيتلس، فأخبروني بأن الاملاك قد سجلت باسم المالك الجديد وأنه سبق وقدم طلباً برخصة لتطوير المنتجع.»

«آه، هذا رائع.» تنهدت مادلين وقد تجدد ذعرها، دون ان يساورها الشك في صحة ما سمعت، فلا شيء يدخل إلى دار البلدية لا تعلم به سادي. «أرجو ان لا يكونوا قد وافقوا على ذلك.»

فهزت سادي رأسها: «كلا، ولكن هذا جزء واحد فقط من هذا الخبر الحسن، لقد اخبرته إدارة التخطيط بكل شيء عن لجنة التراث والإلتماس الذي كانت قدمته لحماية المنتجع بصفته مبنى أثرياً له قيمة تاريخية، ولأجل ذلك عليه ان

يظهر امام لجنتك لعرض قضيته ونيل الموافقة على ما ينوي القيام به، ثم هل تعلمين ماذا أيضاً؟» وازدادت اقتراباً غير مكترثة بنظرات ديليس الباردة، ثم همست تقول: «لقد اخبرهم قائلاً انه اشترى المكان دون شرط خاص وأنه لن يدع شيئاً كهذا يمنعه من التصرف كما يشاء.»

«ومتى انتقل اللقب؟»

«آخر الأسبوع الماضي، الخميس أو الجمعة، كما اظن.»

«حسناً، هذا خبر هام، كما اظن، فهو يمنحنا فرصة شهر لنجعل المجلس الحكومي يضع المنتجع تحت الحماية.»

«حسناً... ليس تماماً.»

جعل شيء في لهجة سادي قلب مادلين يخفق ذعراً: «لا أراك تقترحين...؟ سادي ان اجتماع اللجنة التالي هو هذه الليلة، لا أراك تريدني ان تخبريني ان المالك الجديد...»

«انه مصمم على ان يكون موجوداً يا مادلين، فقد أوضح بجلاء لإدارة التخطيط بأنه لن يقف ساكناً امام أي شخص وليس فقط لجنة التراث، ان امامكم جميعاً حوالي ست ساعات لتنظيم حملة المقاومة.»

• • •

كانت لجنة التراث تتألف من رجلين وثلاث نساء، وقد كانت العادة، منذ سنوات ان يكون اجتماعهم في قاعة الاجتماعات في المتحف وذلك أول ثلاثاء من كل شهر، وكان في العادة عبارة عن تبادل متمهل سار للآراء والاقتراحات بالنسبة إلى حفظ الآثار الحضارية والتاريخية للمدينة من القرن التاسع عشر.

خلال الاجتماع، كانت الآنسة شارلوت هابل تقدم عصير الليمون المثلج صنع البيت، هذا في الصيف، وفي الشتاء عصيدة دقيقة الشوفان، والآنسة روبرتا باريش تصنع الشاي، وخلال ربع ساعة يأخذ الحاضرون في مناقشة مواضيع أخرى تهم المجتمع مثل الجو، تشذيب النباتات، معرض الزهور الذي يقيمه سنوياً نادي البستنة.

بعد ان ينتهي بحث تلك الأمور، تغسل السيدتان الأكبر سناً اكواب الشاي، ثم تخوضان في بعض الأحاديث الجانبية عن اخبار الزواج والحمل.

في ذلك المساء، على كل حال، دعت مادلين اللجنة إلى الانعقاد، متلهفة إلى إعلام اعضاء اللجنة الاخرين بما حدث وذلك قبل حضور المالك الجديد لمنتجع تايلور. ولكنها لم تكد تبدأ حتى أطل حارس المتحف الليلي اوستن بولك برأسه من الباب وهو يعلن: «هنالك شخص يريد ان يتحدث امام اللجنة، يا مادلين.»

غاص قلب مادلين وقالت: «أدخله، يا أوستن من فضلك.»

ففتح أوستن الباب على اتساعه ليدخل الرجل، كان رجلاً طويل القامة عريض الكتفين ذا عينين زرقاوين نفاذتين... رجلاً كانت خطواته الواسعة تنبىء عن شخصية رجل لم يكن ليسمح لأي شيء بأن يعيق تقدمه.

«صباح الخير أيها السيدات والسادة، وشكراً لقبولكم الاستماع إليّ دون موعد مسبق، انني ميك هاميلتون، وقد اشتريت حديثاً املاك تايلور. لقد قيل لي ان عليّ ان أواجه هذه اللجنة لكي اتحدث عما انويه بالنسبة لهذه الأملاك.»

جعل الإضطراب والذهول مادلين تفتح فمها ذهولاً وإذ أحس جون مورتيمر بعدم قدرتها، بصفتها المتحدثة باسم اللجنة، على الكلام حيّا بنفسه القادم.

قال ميك وهو يجلس على الكرسي الذي قدم إليه: «لن اضيع وقتكم، انني أريد رخصة إعادة تطوير كما انني بحاجة إلى تفويضكم قبل موافقة المجلس المحلي.»

فسأل ويليس هادينغ: «ولماذا تريد الرخصة؟»

«لأن الاملاك عموماً، والمبنى خصوصاً، في حالة يرثى لها، ولا بد هناك من فعل شيئاً في هذا الشأن.»

«هذا طبيعي أيها الشاب، فاهتمامنا هو نفسه اهتمامك بهذا الموضوع.» وكانت روبرتا هي التي قالت ذلك.

إنحنى ميك واخرج من حقيبة أوراقه، أوراقاً ثم قال: «لقد دعا مجلس المدينة مؤخراً، فريقاً من الخبراء فحصوا الأملاك، وعندي هنا نسخ من التقرير الذي قدموه بهذا الشأن.»

ووضع عدة نسخ على المائدة المصقولة، مشيراً للمجتمعين بأن يأخذ كل منهم نسخة، «ستجدون ان قرارهم هو ان المبنى في حالته الحاضرة، هو مصدر خطر عام، وأنا انوي إزالة هذا الخطر بأسرع وقت ممكن.»

وابتسم لشارلوت متابعاً: «وحيث انني مالك مسؤول، فلا يمكنني القيام بأقل من هذا.»

بادلته شارلوت ابتسامته: «كلا بالطبع، يا بنيّ اننا متفهمون تماماً، أليس كذلك يا روبرتا؟»

فقالت روبرتا: «انني لست واثقة تماماً.» وكانت هذه اكثر صلابة من شارلوت بالنسبة إلى مقاومة جانبية

الرجال، اخذت تحدق في التقرير من خلف نظارتيها، ثم رفعت بصرها إلى ميك: «ان هذا يعتمد، نوعاً ما، على ما يجول في ذهنك، هل انت مصمم على اصلاح المبنى أم ماذا؟»

التفت ميك نحوها وقد ازدادت ابتسامته جاذبية وهو يرفع يديه إشارة العجز: «اتمنى لو اقول نعم، يا سيدتي العزيزة، ولكنني بعد ان رأيت بنفسي حالة المبنى، عليّ ان اقول ان هذا غير محتمل على الاطلاق.»

بدا الذعر على روبرتا بوضوح: «ولكن لا بد لك من ذلك.» والتفتت إلى مادلين، «هل ستجلسين هنا، يا مادلين، وتدعين هذا الرجل يقوم بذلك العمل المشين؟ تكلمي يا امرأة، فهذه هي وظيفتك، ولهذا انتخبناك رئيسة لهذه الجمعية.»

لكن ذهن مادلين كان من التشوش بحيث لم تستطع التركيز على دورها، لقد كان كل ذلك كذباً... كل شيء من اعلان الاهتمام بالبيوت القديمة إلى دعوات العشاء المخطط لها بشكل جيد كان تمهيداً لهذه اللحظة، كان كل ذلك مجرد تخطيط لكي يدفعها إلى ان تسمح له بأن يفعل ما يريد بهذا... بهذا...

وإذ انتبهت إلى ان زملاءها ينظرون اليها منتظرين، حاولت ان تحرك افكارها ولكنها فشلت بشكل يدعو إلى الرثاء.

لقد كان قال انه يراها امرأة جميلة وهي قد صدقته.

سألتها شارلوت بلطف: «هل انت مريضة، يا مادلين؟ أتريدين كوباً من الماء؟»

فهزت رأسها: «كلا، شكراً.» وبدا صوتها جافاً، غير عادي، فكأنه ليس صوتها، اما قلبها فقد كان ينزف دماً.

لقد تعرضت مرة أخرى لخداع رجل غريب، وكان آندي على حق في كل ما قاله.

وجدت نفسها تنهض واقفة ثم تنحني إلى الأمام بعنف، وتحملق من خلال ضباب مكوّن من العنف والدموع: «اننا لن نقف جانباً متفرجين، بكسل، على ذلك المبنى القديم الرائع وهو يضيع دون ان نجاهد لمنع ذلك.»

تابعت لاهثة: «لا يمكنك ان تأتي لتقف امام هذه اللجنة تطلب الاذن لك بأن تدمر تاريخنا الرائع.»

حول ميك اهتمامه اليها ليشملها بنظراته من رأسها إلى فمها، صامتاً، وجعلها صمته هذا تنفجر غضباً من الخارج، أما من الداخل... آه... لقد كان قلبها يحترق شوقاً اليه ورغبة.

كان ينظر اليها بابتسامة باهتة، وكأنه هو أيضاً كان يتذكر ما جعلها تتأكد من ان كل شخص هنا لا بد أدرك انهما سبق وتعارفا من قبل، وكان بينهما حب غير معلن.

وعادت تقول بهدوء مفاجيء: «انك بالغ الجرأة... يا سيد هاميلتون.»

أجاب بلهجة بان فيها الندم: «نعم، يا سيدتي، هذا صحيح مع الأسف.»

كانت الجاذبية في شخصيته، والتي لم تستطع مقاومتها في البداية، عادت تهدد بإهلاكها مرة أخرى. فقست قلبها لمقاومته، ثم التفتت إلى بقية أفراد اللجنة ثم قالت: «ان هدف وغرض هذه اللجنة هو المحافظة على التراث

المحلي، وانا أرى اننا إذا سمحنا للمال بأن تكون له الكلمة العليا في ما يحدث أو لا يحدث في هذا الخصوص، فالأفضل إذن ان نحل اللجنة الآن.»

فقال جون مورتيمر كارهاً: «ولكن علينا ان نكون واقعيين، لقد بني المنتجع في زمن كانت فيه مواد البناء واليد العاملة رخيصة، فإذا نحن اصررنا على اعتباره مبنى تراثياً، فان علينا ان نختصر ونعدل من هيكل البناء بحيث يماثل أبنية هذه الأيام تنسيقاً ومستوى أميناً، ومحاولة ترميمه تحت هذه الشروط يستوجب نفقات باهظة قد تلجيء مجلس المدينة إلى عدم اعتبار تزكيته.

فقال ويليس هاردينغ: «أنا موافق، فقد أمضيت في اعمال البناء حوالي الأربعين عاماً، ويمكنني ان اقول ان محاولة اصلاح ذلك المبنى القديم المتداعي سيكلف ثروة صغيرة.»

قالت مادلين بحدة تبدي الحقد في نفسها: «كان الأحرى بالسيد هاميلتون ان يفكر في ذلك قبل ان يتسلل إلى هنا ويشتريه.»

قال ويليس: «ربما لم يكن يعرف، وإذا لم يكن بإمكانه دفع نفقات ترميم المبنى، فليس بإمكاننا ان نصنع شيئاً في هذا السبيل.»

قال ميك: «حسناً، والآن وقد وضعنا أوراقنا على المائدة، أليس هناك طريقة يمكننا بها ان نصل بها إلى حل يجعل الجميع راضين؟»

فقالت مادلين بعد ان فقدت كل ما بقي لديها من موضوعية في مواجهة جبهة الموافقة المثيرة للإشمئزاز التي اقامها لإخفاء طبيعته الغادرة، قالت: «نعم، يمكنك ان

تسلمنا هذه الأملاك وتترك مستقبل المبنى بين ايدينا، واثقاً من ان أي شيء نقرره سيكون افضل مصيراً مما تنويه أنت لأجله.»

قلب شفتيه وكأنه يفكر في هذا الاقتراح، ثم هز رأسه بحزن: «ان هذا ليس مقبولاً مني، فأنا لا أنوي التخلص من الأرض خصوصاً من المنتجع الموجود فيه.» واتجه بنظراته ناحية شارلوت وهو يقول باسماً: «والذي هو مبنى قذر مهمل.»

فقالت شارلوت: «لقد تعرض المبنى فعلاً للاهمال، وليس لدي مانع من ان اكون أنا من يقوم بتنظيفه.»

قالت مادلين تذكرها: «ولكن عليك ان تقومي بذلك بسرعة خاطفة إذا كان ذلك بفرض حفظ ذلك المبنى القديم على ما هو، على الأقل هذا ما أرجوه منك، يا آنسة هابل، وإلا ما الذي وافقت على القيام به غير هذا في هذه اللجنة؟»

فقالت روبرتا وهي تطبق فكيها بحدة: «لنفس السبب الذي قمنا به جميعاً، لأن اهتمامنا منحصر في مباني مدينتنا القديمة المتداعية والبالغة الجمال، وقد يكون من الصعب عليك تقدير ذلك، يا سيد هاميلتون.»

فانفجرت مادلين تقول: «الأمر كذلك طبعاً، فهو رجل دخيل، انه لا يهتم اذا ما ابتلع البحر المدينة في الأسبوع التالي، مادام هو غير موجود اثناء حصول ذلك، ولا أدري ما الذي احضره إلى هذه المدينة لاستثمار امواله.»

تدخل جون قائلاً بسرعة: «بدلاً من ان تلجئي إلى الغضب، من الأفضل لنا ان نحاول الوصول إلى نوع من التسوية. ماذا يا سيد هاميلتون، لو أننا أرجأنا قرار منحك

الرخصة التي تطلبها لمدة ستة أشهر، واثناء ذلك تقوم لجنتنا بحملة لجمع التمويل؟ ربما يمكننا بذلك ان نحصل على نوع من الترتيبات المالية تساعدك في ترميم المبنى بحيث تجعله آمناً، عند ذلك يمكن القيام ببقية العمل تدريجياً حسب ما يسمح به الوقت والمال.»

أجاب ميك معتذراً: «لا يمكنني لسوء الحظ ان اتعهد بالقيام بمشروع طويل الأمد كهذا، ذلك ان عملي بصفتي مراسلاً صحفياً يستدعيني لإداء واجبي في أقرب وقت، ولا أعلم متى أعود، وعدا عن ذلك، هناك قضية ترك المبنى على ما هو عليه الآن، لمدة ستة أشهر، ماذا لو ان شخصاً ما، اثناء هذه المدة، اصابه الضرر بسبب تسكعه حول المبنى؟ فأنا عند ذاك سأكون الشخص المسؤول عن ذلك بصفتي المالك وليس أنتم.»

تصاعدت تمتمات تفهم لوجهة نظره، واغرورقت عينا شارلوت الساذجة بالدموع لورطته المؤلمة هذه، حتى روبرتا نفسها بدا عليها التأثر.

ولكن مادلين بقيت صامدة بعقيدتها التي شكلت حياتها، لأن الشعور بالتأثر لهذا الأمر هو فقط لأنها لم تصل إلى نفس هذا القرار قبل اسبوع. وإلا لفضلت إجراء عملية جراحية لاستئصال امعائها على ان تسمح له بالفوز.

سألته وهي تحاول السيطرة على الغضب الذي كان يهدد بجعل صوتها يرتجف: «أتريد ان تقول اننا إذا نحن تأخرنا في إعطائك الرخصة، ستجعلنا مسؤولين عن أي دعوى قضائية تنتج عن ضرر قد يحصل لأي متعد على املاكك، يا سيد هاميلتون؟»

ألقى عليها نظرة جريحة من عينيه الزرقاوين: «ان اضطراري إلى الإبتزاز، يا آنسة سلايتر، هو كيلا اتعمد تعريض الناس إلى الأخطار، فليست هذه عادتي في اعمالي.»

آه، يا له من عقرب مسالم، وكأنها تريده ان يذكرها بأخطاء مارتن. وكأنها لم تدفع حتى الآن ثمن التعاسة التي جلبها زوجها السابق إلى مدينة إدجووتر هذه.

نظرت مادلين إلى وجه ميك الوسيم المتعقل وتمنت لو تستطيع ان تمقته، ولكنها بدلاً من ذلك، كانت تشعر نحوه بالحب والجانبية، وأفزعتها مشاعرها هذه.

الفصل الخامس

اتصلت سادي بمادلين، هاتفياً إلى المكتبة وذلك صباح الاربعاء: «انني في أشد اللهفة لمعرفة ما حصل الليلة الماضية، ولكنني من الانشغال بحيث لن استطيع المجيء إليك لنتناول القهوة معاً، هذا الصباح، فوافيني، بدلاً من ذلك إلى الغداء في فندق ساند دولار لكي تخبريني بما حدث، اتفقنا؟»

اجابت مادلين: «ان صحبتي لن تكون حسنة، هذا النهار.»

«لا بأس سأجرب حظي معك، ثم ان عليك أن تأكلي احياناً.»

«لقد احضرت معي علبة لبن للغداء.»

سمعت شخير سادي الساخر واضحاً عبر الهاتف، قبل أن تقول: «لن اقبل كلمة (لا) جواباً فالمرأة لا تناضل في الحياة مستعينة بمنتوجات الألبان.»

«اظن صحفة من حساء السمك والبصل لا يضر.» قالت مادلين ذلك وقد اصابتها عدوى المزاح من سادي رغم انها كانت أمضت نصف الليلة الماضية أرقة لا تستطيع النوم بعد زوال الغشاوة عن عينيها.

قالت سادي: «كنت افكر الآن في سلطة سرطان البحر وفطيرة السكر وبياض البيض، انك بحاجة إلى ما يقويك إذا كنت حقاً تريدين أن تبقي حية إزاء ما يبدو من صوتك كأنك

www.elromancia.com

وجدت نملاً أبيض في سريرك الأثري ذي الأعمدة، إلى اللقاء ظهر هذا اليوم.»

• • •

كان الفندق قائماً قرب رصيف صيد السمك ما جعله يقدم طعام السمك الطازج على الدوام، ما كان يبعث الرضا في نفوس سكان المدينة، وعندما وصلت مادلين وسادي كانت قاعة الطعام الرئيسية محتشدة بالزبائن ولكن سادي تمكنت من العثور على مائدة خالية على الشرفة ذات الجدران الزجاجية.

قالت: «هنالك عادة غرفة هنا في هذا الوقت من السنة، مادام الجو غير بارد ويستطيع المرء احتمال الرائحة القادمة من المراكب.» وكانت امامهم واحة جميلة مواجهة للماء ومنعزلة.

قالت مادلين: «انني لم احضر إلى هنا منذ مدة طويلة.» غاصت في مقعدها وهي تنظر بإعجاب إلى أصص الزهور المتناثرة بين الموائد «لقد كنت نسيت مبلغ جمال هذا المنظر.»

بدا الذهول على ساندي: «اتعنين أن آندي لم يكن يحضرك إلى هنا في ليالي الجمعة، عندما يقيمون حفلة في قاعة الاستقبال؟»

قالت مادلين: «كلا، ان آندي لا يحب الموسيقى.»

طلبت سادي غداءً لكليهما قبل أن تسأل مادلين: «كم يبلغ عمرك يا مادلين؟»

«أنا في الثانية والثلاثين كما لا بد انك تعلمين حيث أننا نحن الاثنتين، في نفس السن.»

تنهدت سادي ثم اخذت ترشف من كوب عصير التفاح الذي أمامها. «وها نحن الآن... أنت تخرجين مع رجل هو بمثابة أخ لك، كما انني لا اخرج مع أحد على الاطلاق، اننا نذبل، يا عزيزتي.»

قالت مادلين ساخرة: «كلام فارغ.» كانت مصممة على اظهار الشجاعة مهما كان مبلغ شعورها بالتعاسة في داخلها. «اننا مازلنا في شرخ الشباب. حتى ولو كان ممكناً إدارة الساعة إلى الخلف، فأنا لا أريد أن أعود في الثالثة والعشرين مرة أخرى لأي سبب كان...»

سكتت فجأة وقد انتبهت إلى أن سادي لم تكن تستمع وقد تركز اهتمامها في شيء آخر يبدو أنه خلب لبها.

«سادي، هل سمعت كلمة مما قلته لك؟»

وأجابت: «نوعاً ما، وإذا شئت أن تعلمي السبب، فانظري خلف كتفك، واظنني وقعت في الغرام، آه، انه يتجه نحونا.»

«من؟ أهو شخص نعرفه؟»

أجابت وهي مازالت تنظر مفتونة اللب: «لا اظن، فهو ليس كأي من سكان مدينتنا، انه اسود الشعر، بالغ الوسامة، بالغ الجانبية.»

وفجأة فقدت مادلين شهيتها القليلة التي كانت تحاول استجماعها، لا يمكن أن يكون في المدينة رجلان بنفس صفات ميك هاميلتون بالضبط.

والقت كتفان عريضتان بظلهما على المائدة، وقال صوت لا يمكن ان تخطئه: «عرفت انه أنت التي مرت من خلف المقصف، كيف حالك اليوم يا مادلين؟»

كان عليها أن تجيبه بأنها كعادتها عندما يخدعها رجل،

ولكن لم تخرج من فمها كلمة، فقد جف فمها لرؤيته، فهبت سادي لمساعدتها: «لقد ابتلعت لتوها قطعة من الخبز، ولكن حالما تشفى، ستعرفنا ببعضنا البعض، أليس كذلك يا مادلين؟ واثناء ذلك، هل لك بأن تتفضل بالجلوس معنا؟»

«هذا يسرني جداً اذا استطعت أن أجد كرسياً.»

أشارت سادي إلى مائدة قد اخليت لتوها: «يوجد هناك.»

فقال: «آه، نعم، سأعود حالاً.»

وعندما ابتعد عن مرمى السمع، عادت إلى مادلين القدرة على الحديث: «انه هو.»

«من؟ اتعنين الرجل الذي ابتاع المنتجع؟»

«نعم. المتسلل المخادع، أرى من الأفضل أن اغادر المكان.»

«ليس قبل ان تعرفينا ببعضنا البعض، وبما أنه الآن عائد إلينا، هل لك أن تحاولي أن لا يبدو عليك وكأنك وجدت لتوك ذبابة في صحن السلطة؟»

قالت سادي ذلك دون أن تتغير ابتسامتها، تنحنحت مادلين عندما عاد ميك، ثم قالت بما اعتبرته مجرد تهذيب: «هذه سادي بروكس، صديقتي، هذا ميك هاميلتون، يا سادي، والذي ادعى ذات يوم انه هنا في إجازة.»

لم يبد عليه أي ارتباك لتهكمها هذا، وإنما قال ببساطة وهو يضع كرسيه ملاصقاً لكرسي مادلين قدر إمكانه: «هذا صحيح، مرحباً يا سادي، تسرني معرفتك.»

سألته مادلين: «هل هذا كل ما لديك لتقوله؟»

فألقى عليها نظرة جعلت الدماء تجري حارة في

عروقها: «ما أروع أن أراك مرة أخرى، أنت أيضاً، يا مادلين.»

فقالت: «ليس هذا ما كنت أعنيه بسؤالي، وأنت تعرف ذلك.»

فأسرعت سادي بالتدخل: «كم ستطول اقامتك في المدينة، يا ميك؟» كانت لهجتها وهي تسأله ذلك، بالغة الرقة.

«عدة ايام بعد على الأقل.» ونظر إلى كوبيهما. «ما الذي تشربانه؟»

حدثت مادلين نفسها وقد عاد الألم وخيبة الأمل يأكلان نفسها من جديد، حدثت نفسها بأنهما يشربان السم.

فقالت سادي: «أنا اتناول شراب التفاح.»

«هل تريدين نفس الشيء، يا مادلين؟»

واغرقتها نظراته في الذكريات، فردت بحدة: «كل ما أريد أن اسمعه منك هو لماذا أخذت كل ذلك الوقت لكي تخفي غرضك الحقيقي من القدوم إلى إدجووتر، قبل كل شيء؟ وأرجوك أن توفر على مسامعي أي حكايات أخرى عن (مراقبة الطيور).»

ابتسم مسروراً لقولها هذا، ثم تمتم يقول: «انك تظلمينني، لقد صادفت عينة رائعة الجمال ونادرة جداً وذلك في أول يوم أصل فيه إلى جزيرة سبندريفت.»

فأخذت مادلين تندب حظها بصمت وهي ترى سادي تجمع اثنين مع اثنين فتأتي برقم أربعة واضح تماماً، انه ليس حبيباً وكذاباً لليلة واحدة، وإنما هو من النوع الذي لا يشبع.

ردت عليه بحدة: «انك إذن اسعد حظاً من كثيرين، فهناك

شائعة تقول أن ثمة نسراً في المنطقة، ولا اظن أحداً يراه نادراً أو رائع الجمال.»

نظر إليها متمهلاً مفكراً: «ان طائر القمام الذي يعيش على القمامة هو اكثر الأحياء خبثاً، يا مادلين. فهو يأكل كل ما يتركه الآخرون من القمامة.»

فقالت باشمئزاز: «اتعني مثل منتجع تايلور؟ هل هذا ما جئت لأجله؟ أن تتخلص مما رأيته لا اكثر من كومة من حطام قبيحة؟»

«انك تضعين الكلمات في فمي، يا مادلين الحلوة... ولكنني اظن ذلك افضل من سكين بين الضلوع، والذي اظنه ما تفضلين القيام به.»

فردت عليه بصوت لم تصدق انه صوتها: «هذه أحسن فكرة تقريباً صدرت عنك.»

فهز كتفيه، ثم ابتسم قائلاً: «لماذا أنت غاضبة؟ ان أي شخص يسمعك يظنني سرقت المنتجع.»

اجابت: «وقد تكون فعلت ذلك، يا للعجوز المسكين تايلور والذي قد لا يكون أدرك ما يوقع عليه، إذا كنت استوليت على ممتلكاته بنفس الطريقة التي...»

وأكملت في نفسها، (سرقت فيها قلبي).

فقال: «أؤكد لك، يا مادلين، انني حصلت على آخر إنجاز لي بنزاهة.»

«بنزاهة؟ لا اظنك تفهم معنى هذه الكلمة.»

قالت ذلك بصوت خافت يتجلى فيه الغضب، «انك افعى مخادعة غير اخلاقية ودون روح، وسأراك في الجحيم قبل أن أراك تهدم ذلك المبنى القديم الرائع.»

أجفلت سادي وقالت: «مادلين، انني مذهولة لما أسمع.»

فقالت مادلين وهي تقف فجأة، قالت بمرارة: «انك لست الوحيدة، فقد بلغ من ذعري وتأثري من وقاحته أن فقدت شهيتي، وأنا واثقة من انكما ستقبلان عذري انتما الاثنين.»

همّ ميك بأن يمد يده يمنعها، ولكنها تفادته إلى جانب برشاقة، ثم اتخذت طريقها بسرعة بين الموائد، شاعرة بنظرات سادي خلفها وقد فتحت فاها، اما ما كان ميك يفعله فقد بقي غامضاً، لأن كرامة مادلين أبت عليها ان تلقي نظرة واحدة عليه.

* * *

«آه، حسناً، انك هنا.» ودخلت ديليس إلى الغرفة الصغيرة المختصة بموظفي المكتبة، ثم توجهت نحو مادلين بينما كانت هذه تعلق سترتها، «ان السيدة الكوت ستطوف أنحاء المكتبة في زيارة لها، فيما بعد، وهناك عربتا كتب مراجع تنتظر وضعها على الرفوف، وذلك قبل أن تتدفق جماعات التلاميذ من الأبواب، وساكون شاكرة لك جداً لو انك اختصرت فرصة غدائك. وقمت بتلك المهمة يا آنسة سلاتر، ما دمت أنا مشغولة طوال الوقت مع الكمبيوتر والآنسة اوغليتورب مشغولة باستقبال الزبائن.»

لم يكن لدى مادلين أي مانع، فقد كانت تحب السكون العلمي الذي يخيم على ممرات غرفة المراجع العلمية، كانت رفوفها العليا مليئة مسندة إليها سلالم متنقلة قديمة الطراز كانت قممها، من الاتساع، بحيث يمكن للشخص أن يجثم عليها بكل أمان. وفي حالتها الذهنية الحاضرة، كان مثل

هذا المكان مثالياً بالنسبة إليها حيث بإمكانها أن تجلس لتضمد مشاعرها الجريحة.

كيف أمكن أن تنخدع بميك هاميلتون بهذه السهولة؟ ما الذي حدث لها بحيث تجد نفسها منجذبة إلى الكذابين بينما هناك رجل شهم يستحق الثقة مثل آندي مستعد لإلقاء قلبه عند قدميها، والأسوأ من كل ذلك، كيف سمحت لنفسها بإنشاء علاقة مع رجل عرفته منذ أقل من أسبوعين؟

أنت نفسك كاذبة! بهذا أخذ يعنفها ضميرها ان أكثر ما يزعجك هو انك لن تريه مرة أخرى.

غطت وجهها بيديها، ثم تخللت شعرها بأصابعها، وبعد ذلك اخذت تدعك عينيها اللتين كانت تحس فيهما بما يشبه الرمل لقلة النوم.

كانت قاسية عنيفة لحماقتها، وهذا كل شيء، كما ان احترامها لنفسها أصيب بضربة عنيفة، ولكن قلبها لم يمس.

«إذن، فهنا مجثمك؟»

صعدت إليها هذه الكلمات، فنظرت إلى أسفل، وإذا بها ترى ميك هاميلتون ينظر إليها.

قالت له: «أرجوك أن تبتعد، فأنا في العمل.»

«ليس قبل أن نتبادل، نحن الاثنين، الحديث.»

«قلت لك ابتعد، فنحن الاثنان ليس لدينا ما نتحدث عنه، والأكثر من ذلك ان رئيسة أمناء المكتبة ستحضر من يلقي بك خارجاً إذا أنت أصررت على أن تسبب الإزعاج.»

«هل رئيسة الأمناء هي تلك السيدة ذات النظارتين التي شملتني بنظراتها عندما تجرأت على الدخول من الباب الأمامي؟»

استقامت مادلين في وقفتها، وقد سرها أن السيدة ديليس قد عرفت بوجود ميك وأنها لن تحتمل منه أي كلام فارغ.

قالت: «نعم.» وحاولت أن تركز بصرها الغائم على وجوده والذي كان أوسع من الحياة نفسها، وإذ رأت ارتفاع قامته وبنيته القوية، سألته بلهجة أدنى إلى السخرية: «وكيف استطعت أن تنسل من جانبها؟»

لم تفته سخريتها فأجاب: «حسناً، أنا لم أتصارع معها على الأرض وأحذرها، يا مادلين، إذا كان هذا ما يشغل بالك، كل ما في الأمر هو أنني قلت لها ان عليّ أن اتحدث إليك عن أمر لا يحتمل التأجيل.»

«هذا كان دون شك، كذبة أخرى تضاف إلى قائمة أكاذيبك، ماذا تريد؟»

فقال متخذاً لهجة تنطق بالصبر: «ربما تظنين أنني آخر شخص تريدين رؤيته الآن، ولكنني اظن انك اذا سمعتني اتكلم، فربما تغيرين رأيك.»

لم تكن تريد أن تغير رأيها، كانت تريد أن تبقى على عقيدتها بأنه وغد نصاب، فهذا أقل احتمالاً من أن يخدعها بمعسول كلامه، فقالت له: «اذا كنت جئت لتعتذر، فقد فات الأوان نوعاً ما.»

«أنا لم أجيء للاعتذار رغم انني آسف إذا كنت أنا السبب لبكائك هذا.»

فقالت متهكمة: «وما الذي جعلك تظنني كنت أبكي، وانك أنت السبب؟»

اجاب وهو يهز كتفيه العريضتين: «ان عينيك حمراوان،

اما بالنسبة إلى شعرك... حسناً، يا مادلين، انه يبدو قليلاً أشبه بوكر الجرذان، وكأنك كنت تحاولين شده من جذوره.»

«هذا صحيح، ولكن ليس كما تظن، في نوبة اكتئاب انتحاري لأنه ثبت في النهاية انك كذاب دون حس اخلاقي.»

«بالرغم مما تظنين... أو ما اعطيتك إياه من اسباب جعلتك تظنين... أنا لست دون حس بالشرف كلياً، يا مادلين.»

كان صوته عميقاً دافئاً مغناطيسياً، ملطفاً كل حنق لديها رغم جهودها في الإبقاء عليه، أرادت أن تصدقه، ارادت من كل قلبها أن تشعر بخضوع لإغرائه رغم كل الشواهد على انه لا يستحق منها الصفح، انها ستصدقه إذا هي تأكدت من...

قالت له وهي تستجمع شجاعتها لمقابلة نظراته لأن فمه مهما قال، فسترى الحقيقة في عينيه، قالت له: «اخبرني بشيء واحد، هل كنت تعلم، عندما قابلتني، من اكون؟»

أجاب دون تردد: «رئيسة لجنة التراث. المكرسة نفسها بكل حرارة للإبقاء على المباني الأثرية؟ إذا كان هذا ما تعنين، نعم.»

«وهل كان هذا هو سبب احتفائك بي؟ راجياً أن تجد وقتاً تلطف من طباعي قبل أن اكتشف حقيقتك وما الذي تخطط له؟»

فقال مرة أخرى: «نعم.»

«هل هذا هو حسك المهذب؟»

«ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد...»

«آه، ارجوك.» وحولت نظراتها بعيداً وهي تغالب

دموعها، كان من عادتها دوماً ان الغضب يجفف الدموع في عينيها وذلك في وقت اقصر مما يقوم به الحزن، وكرهت أن يلاحظ ضعفها ويسيء تفسير سببه.

«ألا تشعر أن عليك أن توفر مشاعري في هذه المرحلة من لعبتك المعقدة؟»

«لو كان توفير مشاعرك هو الأهم في ذهني، لكنت كذبت عليك.»

«حسناً، ولماذا تغير طبعك الآن؟ فالكذب هو افضل ما تحسنه، على كل حال.» وسمعت تهدجاً في صوتها فأدركت ان السبب هذه المرة، هو شيء اكثر من الغضب.

لا بد انه سمعه هو أيضاً، وبسرعة إرتقى الدرجات السفلى من السلم إلى أن اصبح عالياً وقريباً منها بما يكفي لأن تعد تقريباً، اهداب عينيه الزرقاوين، ثم قال نادماً: «آه، يا مادلين.» مد يديه وكأنه يريد أن يلامس وجنتها.

لو كان لمسها لفعلت اكثر من مجرد الصراخ، لانفجرت بالبكاء، وقد زال عنها الوهم كطفل اكتشف، لتوه ان سانتاكلوز لم يكن سوى أسطورة جميلة.

أمسكت بمعصمه قبل أن تصل يده إلى وجنتها وهي تهمس: «إياك أن تجرؤ على لمسي.»

انزلقت قدمه فترنح بعنف، وفي لحظة رعب ظنت انه سيقع، ولكنه كان سريع التصرف، فطوق بذراعه ناحية السلم الساندة، ومن ثم استعاد توازنه، وتمتم قائلاً: «إذا كنت تريدين قتلي، يا عزيزتي فعليك أن تختاري مكاناً اكثر عزلة، فهنا شهود كثيرون وأنا واثق من انك لا تريدني استحق أن تشنقي من أجلي.»

«ستكون جريمة يمكن تبريرها، وقد يكافئني القاضي لانقاذي المجتمع من.. من...» وصرفت بأسنانها، وقد زاد من غضبها لرؤية الضحك في عينيه، عدم تمكنها من ابتكار صفة مناسبة.

انزل نفسه درجتين ثم تمسك وقال: «انزلي وتحدثي إليّ، يا مادلين، فمن المستحيل تبادل الحديث هنا بهذا الشكل.»

لم تجد مناصاً من النزول، وعندما لمست قدماها الأرض، قالت له آمرة وهي تدفعه في صدره: «ابتعد عني.»

«لا بأس، لا بأس.» تراجع وهو يرفع يديه مستسلماً.

يا لهما من يدين جميلتين، نظرت إليهما وقد ملأها ذلك الاعجاب القديم الذي كان انهكها، كانتا يدين قويتين حسنتي الشكل خاليتين من أي عيب.

نعم، كانتا خاليتين من أي عيب، أمسكت فجأة بمعصميه وأخذت تفحص ابهاميه القويين وقد ضاقت عيناها، انها غشاوة أخرى تنزاح عن عينيها، لم يكن على أي من ابهاميه أثر لجرح حديث حتى ولا قديم.

كانت أكثر غضباً من أن تتجاوز عن هذا الاكتشاف متسامحة، فالقت بيديه بعنف بعيداً وهي تنفجر قائلة دون تفكير: «ومن اين اتيت بتلك الخرقة المدماة؟»

انه على الأقل، لم يستهن بذكائها بادعائه انه لا يعلم ما تتحدث عنه. بل قال يعترف: «انها من قطع مجمدة من لحم خروف كنت أذيبها لأجل العشاء، كنت بحاجة إلى عذر لكي اتعرف به اليك بشكل افضل ولم يكن لديّ وقت كافٍ.»

«كنت تتلاعب بعواطفي، إذن، لقد اخذت تخدعني منذ عرفتني.»

فقال: «نعم، لقد تلاعبت بعواطفك ولكن ليس لكي اخدعك، على الاطلاق.»

«كيف تقول ذلك وقد تعمدت خداعي؟»

«لم يكن الأمر بهذه البساطة أبداً، فعندما ازدادت معرفتي بك، اخذت الأمور تتغير بالنسبة إليّ.»

يا للهجته، كم هي جادة... ومخلصة. فقالت بعد أن لم تعد تهتم بأن يسمعها أحد: «لقد ثارت رغباتك بحيث لم تعد تستطيع التركيز.»

«اظنك أنكى من هذا، يا مادلين.»

«كان المفروض ان أكون أنكى... لقد حاول آندي ان يحذرني.»

«آندي؟» غامت عينا ميك لحظة، وباتت فيهما الحيرة، ثم لمعتا حقداً. «آه، نعم، ذلك الفارس في البذلة الكحلية اللون، والنافذ البصيرة، انه لا يحبني، أليس كذلك؟»

ردت باختصار: «كلا، ولا أنا، فأنت ماكر، مراوغ، مخادع، وأنا...»

فقاطعها قائلاً: «أنت رئيسة لجنة التراث وأنت نفسك لست فوق الكذب الأبيض.»

«كيف تجرؤ على أن تقول لي ذلك؟»

«انك تحبينني، يا مادلين، تحبينني كثيراً، وهذا يزعجك لأنك تعلمت أن لا تثقي بنفسك بينما هي من ناحية أخرى، تجعلك تخافين مني.»

قالت بحقد: «انني اكرهك، فأنت تذكرني بزوجي السابق.»

وما لبثت أن ادركت انها تجاوزت حدها في استفزازه،

عندما قال لها برقة ساخرة: «أحقاً اذكرك به؟ كم هو مقدار كرهك لي يا مادلين؟» وكان ينظر إليها بعينين ملتهبتين تنتظران ما ستقول.

اجابت كاذبة بضعف: «أكثر مما كرهت أي رجل في حياتي.»

«إلى هذا الحد؟» واقترب بوجهه من وجهها. كانت تفوح منه رائحة الصابون وكريم الحلاقة، وأثملها هذا المزيج من الروائح حتى اذا سمعت وقع خطوات تقترب كانت أعجز من أن تعدل من جلستها، مبتعدة عنه.

ارتفع صوت ديليس من آخر الممر متجاوباً: «ما الذي تفعله أيها الشاب؟ ان هذا ليس مكاناً للغزل وإنما هو لعشاق الكتب.»

ابتعدت عنهما باشمئزاز جعل مادلين تشعر بالهوان إذ تراها ديليس بهذه الجلسة غير المحترمة. وصبت جام غضبها على ميك وهي تئن قائلة: «سأقتلك، ثم اقتل نفسي.»

فقال ضاحكاً: «كلا، لن تفعلي ذلك بل ستجعلينني اصلح ما افسدته وذلك بقضاء ساعة معي تستمعين فيها إلى وجهة نظري في الأمور، فإذا بقيت بعد ذلك، مصممة على قتلي لأجل مصير المنتجع، حسناً، اظن لن يكون لدينا خيار سوى أن نتصافح ثم نفترق عدوين، ولكنك مدينة لي بالاستماع، يا مادلين.»

لم تكن تريد أن تعقد اتفاقية مع هذا الرجل الذي لم تر منه سوى الأكاذيب وذلك منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه عليها، فقالت: «انني لا أدين لك بشيء، يا ميك هاميلتون وأفضل ان أراك في الجحيم قبل أن أمضي بصحبتك دقيقة أخرى. اذهب لتسلية نفسك على حساب امرأة أخرى، فان لدي عملاً أقوم به.»

«لقد خيبت ظني، يا مادلين.» كانت نبرة الإزدراء في صوته واضحة وهو يقول ذلك. «لم اكن اظنك جبانة بهذا الشكل، وقد توقعتك عقلانية نوعاً ما، خصوصاً بعد خبرتك السابقة بالنسبة إلى المباني التي لا تتطابق مواصفاتها الأمنية مع المستوى المطلوب.»

اصاب السهم هدفه فجرحها في الصميم، ولكنها رفضت أن تدعه يرى ذلك، فقالت له بجمود: «ان فكرتك عني لا صلة لها بالموضوع.»

نظر إليها طويلاً، ثم هز كتفيه واستدار ليغادر المكان: «حسناً، إذا كان هذا ما تريدين. من الآن فصاعداً، يا سيدتي الرئيسة، نحن الاثنان متضادان... واظنك ستجدين نفسك مهزومة بشكل يرثى له.»

فقالت: «سأنجو من الهزيمة.»

أجاب: «بل أنا الذي سأفوز، لأنني تعودت على أن لا انهزم.»

الفصل السادس

لو كان هنالك شيء من العدالة في العالم، كما اخذت مادلين تفكر وهي تقود سيارتها عصر ذلك اليوم عائدة إلى بيتها، لأصيب ميك هاميلتون بصاعقة وهو يخرج من المكتبة. ولكنه بدلاً من ذلك فتح الباب الخارجي على اتساعه في نفس الوقت الذي كان فيه صف فريدا الكوت يدخل لزيارة المكتبة.

كانت مادلين تراقبه من على الرف الرابع حيث كانت واقفة على قمة السلم بين أجزاء دائرة المعارف فرأته يقف جانباً منتظراً حتى مر به أكثر من دزينة من التلامذة بين التاسعة والعاشرة داخلين إلى المبنى، ثم بعد أن تمتم بكلمات لفريدا التي وقفت قرب المدخل حارسة لتلاميذها، خرج من الباب وما لبث أن توارى هابطاً الدرجات نحو الشارع.

وإذ تملكها الفضول للطريقة التي أخذ بها الصف بما فيهم المعلمة، يحدّقون في أثره، ثبتت عينها على ثقب المراقبة، ولكنها لم تلبث أن تمنت لو انها لم تفعل ذلك وهي ترى ميك يعود صاعداً الدرجات حاملاً صبياً على كرسي بعجلات مع غلامين يمسكان بمؤخرة الكرسي.

كانت تعرف الصبي، ذلك ان كل شخص في المدينة كان يعرف ستيفن لاندري الذي أورثته محاولة مارتن كوربير غير المتقنة لبناء قاعة العاب رياضية، أورثته شللاً دائماً.

«ها قد وصلت يافتى.» سمعت ميك يقول ذلك باسماً وهو يضع الكرسي بكل أمان بعيداً عن الدرجات.

فرد ستيفن له الابتسامة مأخوذاً بقوته هذه، ثم سأله برهبة: «هل تلعب كرة القدم؟»

«لقد اعتدت ذلك، ولكن ليس الآن.»

«ولماذا توقفت؟»

فهز ميك كتفيه وهو ينفض يديه: «لقد وجدت شيئاً آخر اعمله أهم من ذلك.»

بدا عدم التصديق على وجه الصبي وهو يسأل: «أهم من كرة القدم؟ وما هو؟»

اجاب ميك: «متابعة الأخبار، السفر إلى أنحاء العالم للكتابة عن الأشياء والناس الذين أراهم، انني مراسل صحفي، لقد أخذت اشعر بالملل من لعبة كرة القدم، ولكنني لا يمكن أن أشعر بالملل من متابعة احداث العالم، على الاطلاق.»

«هل أنت مثل أولئك الرجال الذين يظهرون على شاشة التلفزيون؟»

«نعم، في بعض الأحيان، ولكنني غالباً، اكتب مقالات للمجلات والجرائد.»

«اظنك ذكياً جداً، أليس كذلك؟»

ضحك ميك وقرص ستيفن بخفة في كتفه، «اراهن على انني لست اذكى منك.»

اشرق وجه الغلام إلى حد جعل مادلين تشعر بذلك الإشراق من مكانها خلف ثقب المراقبة، وهو يقول له بلهجة هادئة: «أتمنى لو أصبح مثلك.»

انقبض قلب مادلين عطفاً على الصبي المسكين.

ولكن تأثر ميك بذلك لم يكن مماثلاً لتأثرها: «وما الذي يمنعك؟»

اعتبرت مادلين سؤاله هذا للصبي المسكين منتهى عدم الاحساس والذوق بحيث لا يحتمل الصفح.

فأجاب الصبي بلهجة واقعية: «انني لا استطيع السير.»

«أهكذا؟» رفع ميك حاجبيه وقال مخاطباً بقية تلاميذ الصف: «هل أنتم أيها الأولاد، تقرأون وتكتبون وترون بأقدامكم؟»

فانفجر التلاميذ بعاصفة من الضحك، ولاحظت مادلين أن ديليس لم تهتم بتلك الضجة، ذلك انها كانت تبحث في مجلة دورية وتنظر إلى ميك وعلى وجهها تعبير بالغ الغرابة، وعاد ميك إلى ستيفن: «وهكذا، ما الذي يمنعك؟ الرياضة؟»

عاد وجه الصبي يشرق بالابتسام، وهو يقول: «اظن ليس هناك ما يمنعني سوى انني لا استطيع القراءة جيداً.»

فقال ميك يعنفه مازحاً: «ولكنك أيضاً لا تتكلم جيداً، فقبل أن تصبح مراسلاً جيداً، عليك أن تنمي مهارتك في اللغة، فلا احد يريد أن يقرأ قصة سيئة اللغة.» ثم رفع يده محيياً بقية التلامذة وهو يقول: «اظن عليّ أن اهرب قبل أن تحبسني المعلمة لتعطيلي الصف.»

«دقيقة واحدة من فضلك، يا سيد هاميلتون.» نادته ديليس بذلك وهي تتقدم نحوه والمجلة بيدها: «هل لك من فضلك، أن تضع توقيعك على هذه النسخة من مجلة نيوزويك؟ ان صورتك في المقدمة، وفيها مقالة تتحدث عن

بطولاتك. وأنا واثقة من أن السيد الصغير ستيفن لاندري يحب الاحتفاظ بها تذكاراً لزيارتك هذه.»

احمر وجهه، ورأت مادلين هذا بوضوح تام من حيث كانت تراقب ما يجري، رأت ميك هاميلتون الكذاب المخادع، وهادم الأبنية القديمة الرائعة، ميك هذا يحمر وجهه خجلاً كتلميذ مدرسة.

هذا بينما كان هو يخط امضاءه بسرعة على غلاف المجلة، متمتماً: «بكل تأكيد.»

تمتمت مادلين وهي تمسح دموعاً سالت على وجهها: «انني أكرهه... أكره ذلك الرجل من كل قلبي.»

انتظرت إلى أن هبط الدرجات، ولا احد ينظر ناحيتها، فركضت خلفه وهي تصيح به من عند العتبة: «هاي... أنت.»

عرف صوتها وأدرك انها تناديه، لقد أدركت ذلك عندما اخذ ينظر حوله ليرى من غيره كان موجوداً قرب باب المكتبة قبل أن ينظر إلى الخلف من فوق كتفه ويحملق فيها ببراءة وهو يسألها بلهجة شاب معذب: «من؟ أنا؟ وما الذي فعلته؟»

قالت وهي تصرف بأسنانها محبطة إزاء قدرته التي لا تخيب في أن يبدو بمظهر أكثر الرجال تعقلاً وبراءة، قالت تسأله: «إذا كنت ما تزال تريد ان نجتمع معاً لكي نتحدث... حسناً...»

أجاب مؤكداً: «نعم، بكل تأكيد، سأحضر إلى بيتك الليلة.»

اجابت بسرعة: «كلا، لا تأت، كما انني أنا لست قادمة إلى بيتك.»

«في المطعم إذن، يمكننا أن نتناول العشاء معاً.»

«كلا، فهذا يبدو أشبه بموعد غرامي، بينما هو ليس كذلك بكل تأكيد.»

«حتى ولو تعشينا معاً بطريقة أن يدفع كل منا عن نفسه؟»

ترددت ثم قالت: «حسناً، ربما.. إنما تحت هذا الشرط... إذا وعدتني بأن لا تخرج في حديثك عن الأعمال...»

فقال: «عيّني الوقت والمكان، وسأكون هناك في غاية من السلوك المهذب.»

• • •

عندما وصلت إلى البيت، أفرغت محتويات خزانة ثيابها على الفراش، وذلك لكي تختار أجمل ثوب عندها لترتديه إلى ذلك العشاء معاً والذي هو ليس موعداً غرامياً. كلا، ليس هذا الثوب العاجي اللون، كلا ولا هذا الطقم ذا اللون الليلكي، وطبعاً ليس الثوب الأخضر المنقوش، فهو لا يحب فتحة عنق الثوب المتسعة. إنه من ذلك النوع من الرجال.

وأخيراً استقر رأيها على ثوب أسود من قماش الكريب مزين بصف من الأزرار من الكتف إلى حاشية الذيل، ملحق به حذاء أسود خفيف من جلد التمساح، وكذلك جوربان أسودان.

كانت ملابسها من البساطة بحيث لم يكن القرطان الماسيان في أذنيها ليشكلا أي إغواء.

«هل أنت في حالة حداد؟ يبدو عليك الجد.»

بادرها ميك بذلك عندما قادها النادل إلى المائدة التي

كان يجلس عندها ينتظرها، «انني لا اعتبر هذه مناسبة مرحة.»

قالت ذلك وهي تحدق عابسة في ربطة عنقه، وكانت هذه من حرير فاخر، هذا إلى بنطلون رمادي اللون ومعطف خفيف كحلي اللون، وكان مظهره بهذه الملابس غاية في الوسامة.

قال لها وهو يشير إلى النادل: «انك بحاجة إلى شراب منعش.»

ثم دفع إليها بقائمة الطعام: «سنطلب ما تريدنه، ثم بعد ذلك نتحدث.»

أخذت تنظر إلى القائمة، كانت تتمنى لو أن مظهره أقل اناقة، ذلك انه سيكون من الصعب عليها التركيز إذا بقي انتباهها موزعاً بين بياض قميصه وسمرة بشرته.

وعندما أخذ النادل منهما الأوامر وتوارى، قال ميك لها: «لقد كنت تتفحصينني بنظراتك، لماذا؟ هل هناك قذارة على وجهي؟ أو خيط على سترتي، أو ان ربطة عنقي متكرشة؟»

فقالت بسرعة: «لا شيء كنت اتساءل فقط عما عسى أن تحدثني به.»

«قبل أن نخوض في هذا الأمر، أريد أن أعلم ما الذي جعلك تغيرين رأيك هذا الصباح بحيث تقبلين رؤيتي مرة أخرى؟»

«لقد شاهدت شيئاً جعلني أرى انك ربما لا ينقصك تماماً الاحساس والطيبة. وهذا منحني الأمل في أنني قد استطيع اقناعك بتغيير رأيك بالنسبة للمبنى.»

«آه...»

«نعم، فقد رأيت ما حدث قبل أن تغادر المكتبة. مع الصف الخامس وستيفن لاندري.»

«الصبي الذي على كرسي العجلات؟»

فأومأت تقول: «نعم، انه من اخبرتك عنه، عندما سقط سقف القاعة الرياضية التي كان صممها مارتن.»

«لقد ظننت هذا.» ونظر إليها دون أن يفصح عما كان يفكر فيه.

«انك كنت... طيباً معه جداً.»

«كلا، لم اكن كذلك، فقد عاملته بنفس الطريقة التي كنت سأعامل فيها أي صبي من عمره.»

فخفضت بصرها: «اعلم ذلك، وهذا هو السبب في انك كنت بهذه الطيبة، فأنا ما كان بإمكاني قط ان أفعل ذلك، فقد كنت كلما رأيت ستيفن أشعر بأن عليّ أن اعتذر إليه من جديد.»

فقال دون شفقة: «أرجو أن لا تستسلمي لهذا الاندفاع، فذلك الصبي يحاول أن يتقدم بحياته وحصر التفكير في الماضي لن يجديه نفعاً.»

قالت بحدة: «اظنك تعتبر التزامي بالمحافظة على منتجع تايلور هو من قبيل (حصر التفكير في الماضي) هو أيضاً، اظنك تفكر في ان الأمر إذا مضى وانتهى أمره فلا بأس أن ينسى المرء كل شيء عنه ويتابع حياته دون ندم؟»

ترك ميك الشوكة والسكين ثم امسك بملعقة الحساء، وعندما نظر إليها أخيراً، كانت عيناه جادتين ثم سألها برقة: «أما زلنا نتحدث عن البيوت التاريخية يا مادلين؟

أم اننا تجاوزناه إلى عالم التواريخ الشخصية المعقد... وعلى الأخص تاريخي وتاريخك؟»

أتراه يلمّح إلى علاقتهما القصيرة؟ أتراه يظن انها قررت أن تقابله هنا الليلة لأنها أرادت أن ترد عليه اتهاماته باتهام مضاد، أم أسوأ من ذلك، تتوسل إليه لأن يواصل علاقتهما المؤسسة على الكذب؟

قالت له بصوت حاولت أن تجعله عميقاً بلهجة العلماء: «في حالتي هذه، الاثنان مرتبطان ببعضهما البعض بشكل لا حل له. لقد ولدت ونشأت هنا، وأنا اتذكر عندما كان الطريق الوحيد خارج إدجووتر، طريقاً ريفياً لا يكاد يتسع لسيارتين كما كانت شوارع المدينة تحفها من جانبيها بيوت قديمة جميلة تحيط بها فدادين من الحدائق والمروج الخضراء، وبعد ذلك انشأ الطريق الرئيسي مخترقاً الحقول والغابات لكي يصلنا بدونسبورت وبقية العالم، وخلال عام واحد دخل المطورون واشتروا كل العقارات. كثير من أفخم البيوت القديمة هدمت تماماً، والأراضي قسمت إلى أجزاء صغيرة سرعان ما بنيت فوقها بيوت صغيرة كالصناديق كانت متشابهة تماماً.»

قال ميك: «ان على الناس أن يعيشوا في مكان ما، أم تظنين ان البعض من الناس فقط ذوي الامتياز يحق لهم أن يكون لهم بيوت خاصة بهم؟»

«كلا بالطبع، ولكن الواقع هو ان إدجووتر بقيت مجتمعاً صغيراً مكوناً من المزارعين وصيادي السمك، فالناس لم يحتشدوا هنا بأعداد كبيرة، فليس هناك صناعة تسندهم، ولن يكون أبداً، وقد ادرك المطورون ذلك فانتقلوا إلى أماكن أكثر فائدة وبقينا نحن لنقوم قدر إمكاننا بالمحافظة على ما بقي من المدينة القديمة، وهكذا أصبح عالمنا القديم هو

ميزتنا الكبرى، وقد أخذ للمدينة عدد من الأفلام الوثائقية شجعت الأعمال المحلية.»

«ماذا تقولين؟ انك ترين اني انفق آخر سنت لدي لكي اصلح منتجع تايلور وذلك لكي يأتي مخرج سينمائي ليأخذ لقطات منه؟»

أزاحت طبق الطعام الذي لم تكد تمسه، وهي تقول: «لقد كنت مخطئة، لأنك لا تملك أية مشاعر أو احساس بالصلة مع الماضي.»

فقال وهو يأتي على طبق السلمون إلى آخره: «انني واقعي، بينما أنت يا مادلين الحلوة، شاذة في قياسك، فأنت قد ولدت بعد فوات الأوان بمئات السنين.»

«بكلمة أخرى، انك مستعد لكي تمحوني من الوجود... ولكن كيف صغت كلامك عندما زرت مجلس المدينة؟ (امرأة صاخبة ليس لديها ما تقوم به سوى التدخل في شؤون الآخرين،) أو كلمات من هذا القبيل، ليس لديك أي تفهم أو احترام لكل ما أقدره، أليس كذلك؟»

* * *

لم يشأ أن يحلل مشاعره نحوها، فكلما طال وجوده بقربها، كلما أسرعت غريزة النجاة لديه تدفعه للف أوراقه ومغادرة هذه المدينة قبل أن ترسخ به القدم في زمنها الملتوي، وإلا فستجعله يحضر حفلات الشاي الشخصية في خلال اسبوع، والموافقة على ما لا يعلم ما سيحدث بعد شهر.

قال: «لقد كنت قلت أمس ان رأيي فيك غير مهم، وكنت

على صواب، فأنا طفيلي في حياتك ولا اتوقع منك أن تغيري رأيك لأنه لا يتفق مع رأيي، ولكنني أتمنى لو تصدقين انني لا استمتع برؤيتك وأنت يائسة، وأتمنى لأجل مصلحتك، لو تحولين اهتمامك إلى نفسك. فالأشياء المتعلقة بالماضي ليست هي الجديرة بالاهتمام، يا مادلين، وإنما اناس هذه الأيام.»

«وأناس الأمس هم من علينا أن نشكرهم لوجودنا هنا، وجدي الأول هو الذي أنشأ هذه المنطقة، هو وأمثاله، بالإضافة إلى تايلور العجوز، ثم وضعوا إدجووتر وجزيرة سبندريفت على الخريطة حين لم يكن هنا سوى الرمال والكثبان، إن جنوب المدينة هو مصان الآن من فيضان الربيع بالسدود التي أنشأوها باليد. الابنية العامة مبنية بالحجارة التي اقتلعوها ونقلوها بأنفسهم.» وهزت كتفيها برشاقة: «لكنني أظن ان توقع الغريب أن يقدر كل هذا هو كثير.»

فأجاب: «بالعكس، (فالرجل العجوز تايلور) كما أشرت إليه دون احترام، هو جدي. وقد بنى المنتجع لجدتي هدية الزواج.»

«هل هو جدك؟» فتحت فمها الجميل ذاهلة، ثم اقفلته منزعجة «لماذا لم تقل هذا من قبل؟ كيف تفكر في هدم شيء هو جزء من تاريخ أسرتك؟»

«لأن الفرق الكبير بيني وبينك هو بصراحة، أنني أرى من الإسراف الكبير أن ننفق المال والطاقة على كومة من الحجارة والأخشاب بينما هنالك أناس في بلاد أخرى يتلهفون إلى مياه صالحة للشرب.»

شعر بأنه مس منها وتراً حساساً، فقد أجفلت ثم وضعت كوب العصير من يدها دون أن تشربه، وكأنها وجدت محتوياته مرة: «هل يشاركك جدك مشاعرك هذه؟»

اشتعلت في ذهن ميك تلك الصورة التي كان حاول إخمادها... الرأس الفضي الشعر والذي مازال مرتفعاً بنبل وكبرياء رغم السن ووهن الشيخوخة، ولكن القدرة العقلية في الداخل قد ضعفت وتشتت، والتصقت بالعالم كما كان منذ ثلاثين سنة أكثر منه هذه الأيام.

ابتدأ يقول: «لسوء الحظ...» ولكنه عاد فسكت بعد أن خنقته المشاعر، تباً لذلك... لماذا لا يستطيع أن يتحدث عن عجوز مريض بشكل أكثر حياداً؟ ان إدموند سيبلغ الحادية والتسعين بعد ثلاثة أشهر، وله في الحياة بال طويل، ان الحفيد العطوف حقاً يفضل له نهاية سريعة على هذا الذهول والإذلال اللذين يتملكانه الآن.

وعاد يحاول الكلام: «ان جدي لسوء الحظ يعاني من انهيار في صحته منذ فترة ولم يعد بمقدوره التحدث عما يريده بشكل مترابط مفهوم. انه يهذي.»

بدت الرقة في عيني مادلين الخضراوين الرائعتين: «آه، يا ميك، كم هذا فظيع بالنسبة اليكما أنتما الاثنين.»

نحنى جانباً تعاطفها هذا بحركة خشنة من يده، وهو يقول: «نعم، حسناً اظن لو انه كان يعي هذه الحالة، لكان قال ان المنتجع القديم مثله هو له الحق في إبداء رأيه، وهذا الرأي هو انه اصبح من التعب والوهن بحيث لم يعد يحتمل مشاق التصليح.»

«هل افهم من هذا ان جدتك..؟» وسكتت تاركة السؤال معلقاً.

«ماتت منذ أكثر من اثنتين وعشرين سنة، لقد تزوج بعدها بسبع سنوات وزوجته الثانية ليس لديها ارتباط عاطفي بالأملاك على الاطلاق، وكانت في الواقع على وشك بيعها في المزاد لمن يدفع سعراً أعلى لو لم أحضر أنا وأمنعها من ذلك.»

قالت له بثقة تامة: «لا أراك تحبها.»

فعبس قائلاً: «دعينا نقل إنني لا اكرهها، انها ليست شريرة أو عديمة الرقة. فهي تحب إدموند على طريقتها الخاصة، ولكن عليّ ان اعترف، لم افهم قط ما الذي رآه جدي فيها، انها لا تشبه جدتي بشيء.»

فقالت مادلين بثقة لم تدع مجالاً للجدل: «انك تغار منها.»

تنهد بغيظ: «ربما.» لم يكن يجب أن يخوض في شؤون الأسرة، فهي خاصة كما ان لا شأن لها بالموضوع، ولكن شيئاً في مادلين مس مشاعره بشكل لم تستطع امرأة أخرى ان تفعل. فحين يكون معها يشعر بكل ما كان تراكم في اعماقه منذ وقت طويل، يشعر به وقد انزاح عنه الغطاء.

«لقد مات والداي في حادث تصادم قطار عندما كان عمري أربع سنوات، وهكذا رباني جداي، وكانت والدتي ابنتهما الوحيدة، أما والدي فقد نشأ في دار ايتام، وهكذا ليس لي أسرة أخرى، وعندما ماتت جدتي هي أيضاً، تحطم جدي، وكذلك أنا إثر هذا الحادث. ولكن عند بلوغي الثامنة عشرة اصبحت أكثر مرونة، ومليئاً بالطموحات البطولية، فكرت في أنني وجدي، بصفتنا الباقيين الوحيدين في

الأسرة، علينا أن نزيد التصاقنا ببعضنا البعض، وان دوري قد حان للعناية بجدي، ولم يخطر ببالي قط انه سيتحول إلى شخص آخر، أو انه سيتزوج مرة أخرى، وخصوصاً امرأة ليست من الشباب بحيث تصلح لتكون أماً لي.»

لأول مرة منذ وقت طويل، ابتسمت مادلين وهي تقول: «انني لا أحسد زوجة والدك عليك، وأنا متأكدة من انك كنت صعب المراس.»

«معك حق، فقد كنت من العناد بحيث أنني إذا قررت شيئاً لم اكن لأغيره ولو لأجل احب الناس إلي، شعرت بأنها اغتصبت مكاني، وهكذا عندما سنحت لي فرصة الالتحاق بالجامعة، تمسكت بها.»

«هل اعتادا زيارة المنتجع كثيراً في ذلك الوقت؟»

«مرة واحدة فقط، فقد كانت فلورا تكرهه، لأنه كان بعيداً جداً عن الطريق العام، وريفي البناء غير مصقول، كان موطنها هو منطقة سان فرنسيسكو، وأي شيء في هذه الناحية من الاطلنطي تبعد عن تلك المنطقة، هو موضع احتقارها.»

«هذا يفسر السبب الذي جعل المبنى يبقى فارغاً مدة طويلة، كما اظن، ولكنني لا افهم لماذا أزعجت نفسك بشرائه إذا كنت لا تنوي الاهتمام به.»

«ان الأرض ثمينة، حتى ولو كان المبنى غير قابل للترميم، ولم اشعر بأن لدي أي خيار آخر، انك تعلمين ان الأملاك كانت ستصادر بسبب الضرائب المتأخرة إذا لم يتقدم أحد ليمنع ذلك.»

«إذا كنت مهتماً إلى ذلك الحد، لماذا لم تتصرف قبل الآن؟

فقد بقيت الضرائب مغفلة لمدة خمس سنوات، وفي ذلك الحين لم يكن المنتجع في مثل هذه الحالة السيئة.»

«لم أكن اعلم ان جدي كان يقترب من حافة الافلاس وأنه اصبح غير قادر على الاهتمام بديونه.» كان ميك يقول ذلك بمرارة بالغة.

«ما الذي تعنيه بقولك انك لم تكن تعلم؟ وما الذي كان منعك من أن تعلم؟»

«عدا عن عدة زيارات قمت بها في الأعياد، فأنا لم أر جدي خلال ثمانية عشر عاماً، وذلك إلى حين وقت قريب، وما كنت لأبقى الآن كل هذا الوقت لو أنني لم أجده قد أفلس عملياً.»

بهذا الخبر كشف عن نفسه أكثر مما كان ينوي، وكانت مادلين سريعة في التقاط ما كان يعترف به، وهي تقول: «انك اشتريت المنتجع نتيجة شعورك بالذنب، أليس كذلك؟ إذ ليس لك أية صلة شخصية به على الاطلاق.»

فقال نافياً قولها: «اسمعي، انني لم أطلب هذا اللقاء معك لكي تتمكني من تحليل نفسية ميك هاميلتون، فوفري معرفتك بعلم النفس لمن يقدرها.»

تراجعت وكأنه صفعها: «يبدو أنني مسست منك وتراً حساساً، أنا آسفة.»

كان يعلم أنه يتصرف مرات كثيرة بحماقة، ولكنها كانت أحد الاشخاص القلائل الذين يجعلونه يشعر بأنه احمق، فعلاً. ومسح عينيه متعباً، ثم هز رأسه قائلاً: «كلا، أنا هو الذي يعتذر، ليس لديّ ما يدعوني إلى توجيه الإهانة.»

«ربما من الأفضل لو حولنا حديثنا إلى العمل.»

«معك حق.»

«افهم من هذا انك ماتزال مصمماً على الوقوف ضدي في اعتبار المنتجع مبنى تراثياً.»

أجابها: «ليس الأمر هو أنني اعارضك شخصياً، يا مادلين.»

قال ذلك شاعراً بالضعف إزاء شعرها اللامع والمكوم عالياً على قمة رأسها بتانق.

فقالت: «حسناً، هذا ما يبدو في الواقع، أليس كذلك؟ مادمت استطعت أن تجعل اللجنة تتبنى وجهة نظرك.»

فتنهد ممزقاً بين الواجب والرغبة: «ماذا لو انني أخبرتك بأنني لم اصل إلى قرار حاسم بعد؟ ماذا لو وعدتك بأن اعاود النظر في هذا الوضع بأكمله بشكل عادل ومن كل زاوية وذلك قبل أن ألمس حجراً في المبنى؟ وإذا أنا عند ذلك، طلبت منك أن لا تعارضي منحي الرخصة التي طلبتها، فهل تثقين بي في الوصول إلى قرار يرضي الجميع؟»

«ربما كنت اضع ذلك في الاعتبار، لو انك كنت صادقاً منذ البداية، ولكنك استغللتني... وغدرت بي بأسوأ ما يمكن أن يغدر رجل به امرأة.»

شعر بالخزي وهو يسمع صوتها وينظر في عينيها، «هل تصدقينني إذا أنا قلت لك ان ما أفصحت لك عنه من مشاعر، هي حقيقية؟»

«هذا ممكن، ولكن ذلك لا يغير من واقع أن ليس ثمة سبب يجعلني أثق بك الآن، ان خبرتي بالشخص يجب أن تكون أعمق من مجرد إبداء رغبة عاطفية، وذلك حتى اغامر

بقبول ماتطلبه مني، وهذا غير موجود بيننا، أليس كذلك يا ميك؟»

«أنا...» وجبن أمام هاتين العينين الخضراوين الشفافتين، عالماً بأنها تستحق نفس الصدق الذي أبدته نحوه لتوها، فعاد يقول: «كلا، انني اعرف ما تريدينني ان اقوله وهو ان ما حدث بيننا... هو شيء ثابت ودائم، ولكنه ليس كذلك، ما مادلين، انه لا يمكن أن يكون في هذا الوقت القصير الذي تعارفنا فيه، حتى ولو كان كذلك فان طريقة حياتي لا تستقيم مع دوام الأمور، أظن إذا نحن وصلنا إلى ذلك، فسنرى الفرق الكبير بيننا، انني رحالة اتطلع إلى الغد، بينما أنت مستقرة في بقعة واحدة مكرسة نفسك للتمسك بالأمس، انني آسف، يا مادلين.»

• • •

الحب... كلمة لم يستطع ان يقولها، وتملك مادلين الأسى لذلك ليس لنفسها وليس لأجل جده حتى ولا لأجل جدته التي ماتت منذ عهد طويل.

وقالت: «وأنا أيضاً آسفة، فأنا اعلم انك تظنني عنيدة حمقاء، وقد اكون كذلك، ولكن الجذور هي مهمة بالنسبة إليّ، حتى ولو لم تكن تعني لك شيئاً.»

مط عنقه وادخل اصبعه داخل ياقة قميصه وكأن ضيقها يزعجه: «لا اظن بإمكاني ان ارشوك لكي تقبلي، بعد ان اصبح كل شيء مكشوفاً بيننا، بأن تضعي ثقتك بي من الآن فصاعداً.»

«انني لا اقبل الرشوة على الاطلاق، فأنا دوماً أتبع القوانين، يا ميك.»

«أنا لا افعل ذلك.»

فقالت بحزن: «اعلم هذا، وهو شيء آخر يجعلنا غير متلائمين، وهو السبب الذي يجعلني لا اصدق أن كل ما تقوله مؤسس على الثقة.»

قال وهو يتخلل شعره بأصابعه بيأس: «انك لست تلك المرأة السهلة التي توقعتها.»

فقالت: «كلا، أنا لست كذلك.» ولكنها كانت تكذب، ذلك لأنها وقعت في غرامه تماماً، وهي مستعدة لأن تتبعه إلى آخر العالم لو انه طلب منها ذلك، ولكنه لن يفعل هذا، ولو كان لديها ذرة من صيانة النفس لأنهت اجتماعها هذا المساء قبل أن تقول شيئاً تندم عليه فيما بعد، فقد يندفع ويسلب منها قلبها قبل أن تستطيع منعه، ولكنه لن يستطيع أن يسلب كرامتها ومبادئها.

أمسكت بحقيبة يدها المسائية وخرجت من خلف المائدة، فسألها بدهشة: «ألا تريدين قهوة أو حلوى؟»

«كلا.» كان عليها أن تهرب منه، فهي لا تستطيع التفكير بوضوح وهو جالس قبالتها، وعيناه الزرقاوان تضعفان عزمها. «تصبح على خير. وانا آسفة إذ لم نستطع الوصول إلى اتفاق.»

«مادلين، انتظري.»

لكنها تجاهلته وركضت إلى مكتب المحاسبة فكادت تصطدم بالنادل في طريقها: «ان ضيفي على العشاء سيبقى فترة قليلة، وأحب أن أدفع ثمن وجبتنا قبل أن اغادر.»

لكن النادل هز رأسه قائلاً: «لقد دفع السيد ثمن الطعام قبل وصولك، يا سيدتي.»

كان عليها أن تدرك انه سيفعل هذا، وكل هذا كان جزءاً من نظرته إلى المستقبل، بينما قد جاءت هي متلكئة خلفاً، وقد شغلها الماضي عن أن تتدرب على نوع من التبصر في المستقبل وهو الذي كان طبيعة ثانية في رجل مثل ميك هاميلتون.

www.elromancia.com

الفصل السابع

ذهبت مادلين إلى بيتها قاصدة كلبتها المخلوقة الوحيدة على الأرض التي تستطيع ان تخفف من الشعور بالوحدة في قلبها.

انها ستطعم كلبتها تلك ثم تذهبان إلى النوم مبكراً، وربما عند الصباح لن تبدو الأشياء مظلمة كما هي الآن.

ولكن بيغليغ لم تهتم بالأكل، وفي الواقع لم تكن على عادتها من المرح والصخب، واستحثتها مادلين: «هيا، يا حلوتي» فتحت لها الباب تغري الكلبة بالخروج لآخر مرة قبل النوم.

«اذهبي واستنشقي الهواء الطلق بينما استعد انا للنوم.»

لم تكن الكلبة في العادة تحتاج إلى دعوة أخرى، ولكن الريح كانت قوية وقد ابتدأ المطر يهطل بغزارة، فبدت على غير العادة، كارهة لترك دفء المنزل، قالت لها مادلين بحزم وهي تدفعها باتجاه الدرجات: «اذهبي، فأنا لن انهض في منتصف الليل لأفتح لك الباب، ولهذا من الأفضل ان تستفيدي من هذه الفرصة الآن.»

واغلقت الباب خلفها ثم صعدت السلم لتستعد للنوم، لقد كان الحق مع آندي، اخذت تفكر في ذلك وهي تخلع ثوبها الأسود الضيق ثم تعلقه في خزانتها الأثرية في غرفة نومها، لقد كان آندي انذرها بقوله: «ان رجلاً مثل هاميلتون لا يأتي من ورائه سوى الإزعاج. فهم يأتون إلى مدينة جميلة هادئة

كمدينتنا، ثم يحولون ذلك الهدوء إلى ضوضاء وجلبة، ثم لا يلبثون ان يبتعدوا عندما يناسبهم ذلك تاركين الآخرين ليعالجوا ما تركوه من فوضى ومشاكل اختلقوها.»

كل كلمة من كلامه كانت صحيحة... ولكن الواقع بقي ان غريباً فارع القامة أسمر البشرة هو وحده الذي أمكنه أن يخفف من الوحدة في حياة مادلين والتي لم يلحظها أحد.

فكرت بتعب وهي تخلع قرطيها، آه على من تكذب يا ترى؟ ذلك انه ليس مجرد الشعور بالوحدة ما كان يحزنها. وإنما وقوعها بغرام فيك.

بدأت بخلع ملابسها، عندما ابتدأت الضجة، ابتدأت كهمهمة رعد من بعيد، ولكن بدلاً من ان يأتي من السماء، ابتدأت ذبذباته تحت قدميها، أخذت المياه في حوض الحمام تتحرك وكأنها تغلي فوق نار غير مرئية، واخذت مرطبانات الزيت وأدوات الزينة الموجودة على رف الحمام تتراقص في اماكنها، كما اخذ زجاج النوافذ يهتز، وبدأت الضجة تعلو وتقترب إلى ان اخذت تزمجر تحت أساس المنزل الريفي القديم بقوة بعثت الرعب في فؤادها.

همست: «آه، ما هذا؟» وأسرعت تلف نفسها بمعطف منزلي من القطن ثم تركض إلى النافذة، حيث كانت بقع الضوء الآتية من المطبخ تهتز على العشب، وركضت تهبط السلم وقد استبد بها الرعب.

اخذ الباب يقرقع وهو يهتز تحت لمسة يدها. وعندما فتحته اخيراً اخذت الرياح تصفر حولها، ولكن لم يكن ثمة أثر لكلبتها بيغليغ.

صرخت وهي تخرج إلى الشرفة الخلفية: «بيغليغ

تعالي.» ولكن كل ما سمعته من جواب كان تأوه شجرة الكرز في الحديقة عندما اخذت جذورها تتشبث بالأرض المهتزة حولها.

تصاعدت تلك الضوضاء الخفية إلى حد يهز العظام، كما تماوج درابزين الشرفة واهتز ومن ناحية المنزل التي تهب منها الريح تصاعدت قرقعة تحول إلى ما يشبه الرعد.

عادت تنادي مرة أخرى بيغليغ وهي تتعثر على الدرجات التي كانت تترنح بشكل غريب.

وولولت الريح في آن واحد مع هدير عميق من تحت اقدامها، فنفخت معطفها الذي انفتح على اتساعه معرضاً ساقيها للمطر، كما تطاير شعرها حول رأسها بعنف ثم ما لبث ان عادت خصلاته، بعد ان ابتلت، فالتصقت على وجهها.

وعادت تصيح باكية: «بيغليغ وهي تندفع إلى الأمام تبحث بعينين لا تريان ذلك الشبح الأليف الغالي، ولكن بدلاً من ذلك اذا بها تصطدم بصدر انسان صلب يعلو ويهبط وذلك في الوقت الذي أضاء فيه البرق الكون.

«ما الذي يجعلك تجولين في أنحاء المكان في هذه اللحظة، يا مادلين؟ هل تريدين قتل نفسك؟» وكان هذا صوت ميك يصيح بها.

«بيغليغ لا أدري أين هي، علي ان أعثر عليها.»

«عودي إلى الداخل وابقي تحت السلم أو عند مدخل الباب. فالأرض تزلزل بنا.»

قالت مادلين وهي تشهق باكية: «انها تخاف من الضجة العالية، علي ان أجدها.»

«سأذهب انا للبحث عنها، فافعلي انت ما قلته لك.»

«كلا، فهي لن تستجيب إلا إلى صوتي، انها لا...»

فقال بحزم: «إلى الداخل، الآن.»

جرها صاعداً بها الدرجات غير حافل، متعثراً هو نفسه في الظلام، وساعده الحظ وبصيرته في العثور على الباب فدفعه بكتفه وهو يقول: «لقد انتهت أول زلزلة عملياً، ولكن ربما تتبعها زلزلة الإرتداد، كيف تدفئين منزلك؟»

«بالطاقة الكهربائية.»

«من حسن الحظ أن ليس ذلك بالغاز. أين تحتفظين بالشموع؟»

«لا أدري.» ولكنها اخذت تتذكر ذلك ان الذعر قد تملكها على كلبتها الموجودة في مكان ما، وحيدة خائفة محاطة بغضب الطبيعة، «لا استطيع ان اتذكر.»

«حاولي.»

فصاحت به: «ان لها فقط ثلاثة أرجل.» وفي مكان ما خلف الكاراج، قرقعت شجرة أخرى بشكل مفاجيء ثم انهارت على الأرض محدثة دوياً كالرعد.

هزها ميك بعنف فاهتز رأسها كدمية من خرق، وهو يصرخ بها بحدة: «استمعي إليّ، اننا بحاجة إلى شموع، كبريت، اذاكنت تريدين أن تري كلبتك مرة أخرى، فاخبريني عما أريد معرفته. لقد وقع من يدي مصباحي الكهربائي لا أدري اين وذلك عندما اصطدمت بي، ولا استطيع أن أرى أي شيء من دونه.»

أعادها كلامه وصياحه إلى وعيها من حافة الهستيريا التي أوشكت ان تتملكها، «ان الكبريت في الدرج الأعلى من المنضدة.»

«في أي غرفة؟»

«هنا، في المطبخ.» وخلصت نفسها من قبضته ثم أخذت تسير متعثرة على غير هدى، لم تكن تستطيع حتى رؤية يدها في هذه الظلمة الحالكة. «انها هنا قرب المدفأة.»

«والشموع.»

«على رف المدفأة.» أطبقت بأصابع يدها اليمنى على قبضة نحاسية ثقيلة، بينما اخذت تتحسس بيدها اليسرى درج المنضدة. وما لبثت ان قالت: «هذا هو الكبريت، لقد وجدته.»

إتجه نحو مصدر صوتها، فقد كان حسه بالاتجاهات اكثر إرهاقاً من حسها، وقال: «اعطني الكبريتة.» اقترب منها وأدارها بمرفقه إلى ان واجهته.

وبعد لحظات اشتعل الكبريت مرسلاً الظلال في أنحاء الغرفة، كانت يده ثانية تماماً وهو يدني اللهب من الشمعة التي كانت في يدها ثم يأخذها باحثاً عن شمعة أخرى ثم يضعهما معاً على المنضدة.

قال: «هذا حسن.» وذلك بلهجة طبيعية وكأن زلزال آخر الليل كان شيئاً عادياً تماماً، «والآن بإمكاننا ان نرى ما نفعله، ولكن لسوء الحظ، لن تنفعنا الشموع كثيراً في هذه الريح العاصفة في العثور على مصباحي الكهربائي، في مكان ما هنا...» ثم تحسست طريقها إلى حيث حقيبة يدها فأخذت تبحث فيها مخرجة كيس نقودها، ثم المفاتيح، والمشط: «لا أدري أين هو.» وابتدأت موجة أخرى من الذعر تتملكها.

تناول ميك الحقيبة من يدها المرتجفة قائلاً وهو يقلبها

على المنضدة مفرغاً محتوياتها: «دعيني أبحث بنفسي.» قلم احمر الشفاه، مفكرة للعناوين ودفتر ملاحظات، واخيراً مصباح كهربائي بحجم القلم كان يساعدها في العثور على وضع المفتاح في باب سيارتها في الليالي الحالكة الظلام، وأمسكه ميك بين اصبعين وهو يقول: «أتسمين هذا مصباحاً؟»

«انه كل ما عندي.»

فقال وهو يبتسم لها: «إذن فيجب ان ينفعني، اعطيني مقود الكلبة إذن، ودعك من هذا التفجع، يا حلوتي، سأعثر لك على كلبتك، فاطمئني.»

قالت: «انني اصدقك.» ذلك انه لم يكن لديها خيار آخر.

قال: «ولكن عليك ان تعديني بشيء مقابل ذلك.» وكان يتبعها إلى الردهة الأمامية حيث كان مقود بيغليغ معلقاً على مشجب قديم الطراز كان قد عبر المحيط الاطلنطي مع كل محتويات منزل جدة مادلين الأولى، «بماذا تريدني ان اعدك؟»

«بأنك لن تغامري بالخروج من المنزل، فهذا خطر عليك.»

أومأت وهي تناوله المقود بينما كان هو يتابع محذراً: «حتى ولا إلى الشرفة امام الباب.» ثم جرها عائداً بها إلى المطبخ حيث اجلسها على كرسي بجانب المنضدة وهو يقول: «إبقي جالسة هنا لا تتحركي إلى أن أعود.»

في اللحظة التالية كان قد خرج ولكن في نفس الفترة التي انسل فيها بسرعة من الباب الخلفي، كانت العاصفة الهوجاء تندفع إلى المطبخ.

بعد خروج ميك، لم يعد البيت ملجأً بل سجناً، صامتاً موحشاً مليئاً بالظلال، لقد أبرزت دائرة الضوء حول الشموع حلوكة الظلمة خارج الدائرة تلك، وكانت دقات الساعة تتوالى تعد الثواني التي أخذت تمتد إلى دقائق طويلة متوترة.

أين هي بيغليغ؟ أين هو ميك؟ اقترب منتصف الليل ببطء دون ان يعكر صفو السكون سوى ضربات قلب مادلين وهي تتجاوب في أذنيها، وقبل ان تدق الساعة الثانية عشرة بثوان قليلة، إذا بتلك الهمهمة العميقة تحت الأرض تعود لتتماوج خلال الأقبية بقوة غامضة. فاهتزت حاملات الشموع ما رقت معه الظلال على الجدران، وعلى السقف فوق الرؤوس، اخذت المصابيح المعلقة تترنح وهي تلتمع في الضوء الخافت.

لم يكن زلزالاً قوياً كسابقه، وقد دام حوالي العشرين ثانية، ولكن بالنسبة إلى مادلين مر بها دهر كامل قبل ان تعود الأرض إلى الهدوء، ولكن السكون كان قد تبدّد، مصماً أذنيها عن أي صوت آخر، وقد تملك نفسها اللهفة والخوف، فجلست على الأرض ولفت ذراعيها حول ساقيها، دافنة وجهها بين ركبتيها.

• • •

تضاءل التوتر الذي راق عملية البحث عن الكلبة بين كثبان الرمال، فأصبح تافهاً إزاء الخوف الذي تملك ميك عند عودته إلى البيت ليجد مادلين هادئة ساكنة تحت المنضدة.

«مادلين؟» صفق الباب بعنف وهو يقفز إلى الأمام مزيحاً من طريقه الكراسي التي كانت تعيقه عن التقدم نحوها.

«هل يمكنك ان تسمعيني، يا حبيبتي؟»

فرفعت إليه عينين زائغتين يملأهما الرعب وارتفع صوتها يهمس كالنسيم: «بيغليغ؟»

«لقد وجدتها، انظري إليها، انها هنا... انها مبتلة ومتجمدة من الخوف، ولكن لم يصبها أذى.»

مازالت مادلين لم تتحرك، وكذلك لم يظهر على وجهها أي تعبير من السرور أو الارتياح، وبدلاً من ذلك اخذت تنهمر من عينيها دموع الرعب التي تجمعت فيهما طوال الساعة الماضية.

جلس ميك بجانبها وأخذ يفك اصابعها من حول ساقيها المثلجتين برداً، وهو يقول لها بحنان: «أخرجي من تحت المنضدة. انك في أمان الآن، انني هنا، كلنا هنا.»

لقد كان شاهد نساء مسنات جداً يتصرفن مثلها، وكان عظامها من الهشاشة بحيث لا تستطيع الحركة. وزحفت اليه بذلك الوضع، إنشاً بعد إنش، إلى ان اصبح بإمكانه حملها ووضعها على كرسي هزاز بجانب مدفأة الحطب وكان على ظهر الكرسي وشاح كبير لفها به فوق معطفها القطني الرقيق والذي كان مبتلاً بالماء، وهو يقول: «انني سأدفىء المكان. ونحن سنمضي الليلة بأتم راحة وسترين.»

كانت بجانب المدفأة سلة تحتوي على كل أدوات إشعال النار، إنحنى، ثم كوم الحطب في المدفأة واضعاً فوقه بعض الصحف، ثم اشعل ذلك، وعندما اخذ اللهب يتدافع كان

النعاس قد ابتدأ يتغلب عليها، وقف ثم عبر الغرفة بخفة زائدة وقد ابتدأ ذهنه باتخاذ قرارات حاسمة.

كان قد وصل إلى الباب الذي يقود إلى بقية غرف البيت، عندما أوقفته قائلة بصوت باك: «لا تذهب.»

فقال يطمئنها: «ان بيغليغ بحاجة إلى تنشيف وكذلك نحن، لقد اخذت معي المصباح الكهربائي وتركت لك الشموع، لن أتأخر، أين علي ان أبحث؟ ان تلك المناشف الصغيرة التي تحتفظين بها في غرفة التواليت لا تفيد، اننا بحاجة إلى مناشف كبيرة.»

فقالت: «انها في الطابق العلوي في الحمام.»

هذا أمر جيد، فقد سمح له ذلك بأن يتفقد المبنى من أي ضرر قد يكون اصابه من جراء الزلزال وذلك دون ان يسبب لها المزيد من القلق، كان المكان محاطاً بالأشجار وقد سقط منها عدد كبير، إذا كان هذا أول الزلزال، قد سبب ضرراً للسطح، فقد لا يكون بيتها آمناً للسكن كما يرجو لها أن يكون.

عندما كانت فيما مضى، قد جالت به في انحاء البيت تريه إياه، لم يمضيا وقتاً طويلاً في الطابق العلوي، كانت ذكراه عن تصميمه مبهمة، ثلاثة من الأربعة غرف نوم كانت تتلألأ أناقة حيث انها لم تكن مشغولة كما يبدو، ولكنها كانت مؤثثة بأثاث يبدو وكأن تصميمه ماخوذ من مجلات التراث، أما الغرفة الرابعة، وهي الاكثر اتساعاً، والمحتشدة بالأشياء الأنثوية فقد كانت غرفتها.

أجرى فحصاً سريعاً شعر بعده بالارتياح وهو يرى ان النوافذ بقيت سالمة، كما ان لا أثر لتشقق في السقف أو

الجدران، كان هذا المنزل الريفي وملحقاته مبنياً، بشكل يقاوم معه أسوأ انواع العواصف والأعاصير، كما أنه نجا بمعجزة، من الزلزال هذا.

هذا، بالإضافة إلى أنه لم يكن بحاجة إلى القلق خوفاً من تسرب الغاز، لم يبق هناك سوى شيء واحد يدعو إلى الاهتمام، وهو مصدر التزود بالماء، لم يكن ميك خبيراً، ولكنه كان قد عاش في منطقة سان فرنسيسكو مدة تكفي لأن يتكهن بأن درجة هذا الزلزال كانت تعادل الخمسة بمقياس ريختر. كان الطريق الذي يصل بقية إدجووتر بجزيرة سيندريفت يمكنها كذلك ان تحتمل كافة الأضرار، وإذا حدث ذلك، ففرقة الإنقاذ تصل إليهم متأخرة.

كان الحمام مثل غرف النوم، قطعة من المتحف، من النحاس الصلب، والصنابير من البورسلين وكذلك الحوض، ولكن ارتياحه وهو يرى الحوض مليئاً، كان قصيراً، فقد أدرك من الرائحة الخفيفة المتصاعدة من المياه انها كانت قد وضعت فيها عطراً، ما جعلها غير صالحة للشرب.

اخذ مناشف من الخزانة وكذلك بطانيات ووسائد، وأيضاً غطاء سريرها، وألقى بالجميع من فوق السلم، ثم عاد يبحث عن شيء تلبسه بدلاً من ذلك المعطف الذي تلبسه حالياً، وقف امام منضدة الزينة في غرفتها ثم وضع المصباح بين اسنانه وفتح الدرج العلوي.

كانت الأدراج مبطنة بورق منقوش بالأزهار ومعطرة بأكياس عطر صغيرة كتلك التي اعتادت والدته ان تستعملها، انبعثت تثير اشجانه. الأقمشة الحريرية الناعمة الملمس كانت تثير شوقه. ملابسها... أترى رآها احد غيره؟ تلك

الملابس التي ترتديها تحت ثيابها اليومية المحافظة، أترى مساعدة رئيسة أمناء المكتبة ورئيسة لجنة التراث تحب ارتداء مثل هذه الملابس المثيرة؟

أقفل الدرج بعنف، ثم فتح درجاً آخر فوجد ما كان يبحث عنه، قميص نوم قطني دافىء هو من الاحتشام بحيث يمكن ان يكون صمم للملكة فيكتوريا المعروفة بتحفظها، كان يصل إلى الأرض طولاً ومخططاً باللونين الأبيض والكحلي، وهو يغطي جسمها كله.

قال لها وهو يضع حمله هذا في المطبخ ملقياً قميص النوم في حجرها: «هاك، إرتدي هذا القميص، ولكن إبقي هنا وانت تفعلين ذلك، إذ رغم ان سقفك يبدو صلباً بما فيه الكفاية، فلنعتبره غير آمن حالياً.»

دخلت إلى غرفة الملابس، وأثناء ذلك اخذ يتفحص الهاتف، ولم يدهش وهو يراه مقطوعاً تماماً، قال يحدث بيغليغ وهو يجففها بالمنشفة: «ولكنك انت بخير. وقد كان يمكن للأشياء ان تكون أسوأ بكثير.»

لم يشعر بعودة مادلين إلا بعد ان سمعها تقول وهي تطل على كلبتها من فوق كتفه: «أين وجدتها؟»

«منكمشة قرب مخزن الغلال.»

نظر اليها ملاحظاً ان هذا القميص، رغم انه يغطي كل جسمها ويصل إلى الأرض طولاً، إلا انه لم يخفف من أنوثتها.

جلست بجانبه وقميصها ينتفخ حولها كالخيمة، ثم قالت متمتمة: «مسكينة بيغليغ، انها تلهث صافرة كالقاطرة، هل احضر لها بعض الماء؟»

تمنى أن يجيب طالباً منها ان تحضر دلو ماء وتسكبه فوقه هو، فقد يكون في ذلك ما يبرد مشاعره نحوها.

ابتلع ريقه وهو يقول: «ما الذي لديك من الاستعدادات للطوارىء؟»

«لدي طعام، إذا كان هذا ما يقلقك.»

«انني لست قلقاً بالضبط. ولكن ما حدث لنا هذه الليلة يستلزم اهتماماً بكل شيء، فمصادر المياه قد تكون دمرت، ولهذا علينا ان نحافظ على كل نقطة ماء لديك في المنزل.»

«هنالك برميل من مياه المطر في نهاية الشرفة. انني استعملها لغسل شعري.»

وأثار هذا في مخيلته صورة أخرى لها، رآها بعين الخيال تنحني على البرميل وشعرها الرائع ينسدل امام وجهها.

ألقى اليها بمنشفة: «اكملي تجفيف الكلبة بينما اذهب انا لألقي نظرة.» قال هذا بغية وضع مسافة بينه وبين مصدر كبير للإغواء النسائي. «فإذا ظهر ان البرميل لم يحدث له ما يجعل المياه تتسرب منه، فسيكون فيه ما يكفينا لليومين القادمين.»

«قد يكفي لمدة اسبوع، فالبرميل يتسع لعشرين غالون.»

لمدة أسبوع؟ تباً لذلك، فهو ليس واثقاً من أن بإمكانه مقاومة اغرائها ليلة واحدة، في الخارج، كانت الرياح ماتزال تعصف وتولول دافعة المطر امامها كالنهر الكاسح، فلو كان فكر في ما يجب ان يقوم به، بدلاً من التفكير في العواطف والمشاعر، فربما كان خطر له ان يضع على الشرفة إناء يحتفظ فيه بماء المطر.

ولكن ما لبث ان ظهر ان لا حاجة له لذلك، على كل حال، فقد كان البرميل سالماً ومليئاً إلى الحافة، وهكذا لم يعد الماء يمثل أية مشكلة، ولكن المشكلة كانت في مادلين.

رآها امرأة جميلة مرغوبة، ورغم انه حاول ان ينبذ هذه الفكرة، إلا ان التفكير في إثارة مشاعرها نحوه، اخذ يستحوذ عليه، ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، وكان يعلم ذلك، لم يكن عليه سوى ان ينظر في عينيها ليدرك انها من أولئك النساء اللاتي يقترن الحب بالزواج، بينما هو لم يكن يرى الأمور بهذه الطريقة على الاطلاق.

ذلك انه بالنسبة إلى الحب، هذا اذا كان للحب الشاعري وجود، كان يرفض التصديق انه من الممكن ان ينمو في مثل هذا الوقت القصير الذي مر عليه معها، أما بالنسبة إلى الزواج، فهذا النظام الاجتماعي هو في رأيه غير مقبول تماماً. وعدد حالات الطلاق يشهد بذلك. اما بالنسبة لذلك الزواج الذي يدوم طويلاً فسببه روابط مادية، ففي العالم كثيرات ممن يشبهن فلورا زوجة جده... أولئك النسوة لا يستطعن أو لا يرغبن في إعالة أنفسهن ولهذا يتعلقن بزوج يحمل عنهن أعباء الحياة.

ولكن كل هذه الاعتبارات لم تخفف من رغبته في مادلين، ولو كان يتمتع بعشر ما يظنه في نفسه من ذكاء، لهرب بأقصى ما يمكنه من السرعة إلى مسكنه قبل ان يوقع نفسه في مأزق لا يستطيع معالجته، ولكن المشكلة هي انها بالرغم من ان منزلها هو آمن حالياً، إلا ان ثمة خطراً حقيقياً من ان تحدث زلزلة ارتدادية أخرى يتبعها سقوط أشجار. وهو ليس من النذالة بحيث يتركها تمضي بقية الليلة

وحدها، اخذها معه إلى مسكنه هو حل غير معقول اكثر من بقائه معها هنا.

اخذ يشتم طويلاً، اين هو ذلك الفارس في البذلة الكحلية، ولماذا لا يظهر في إبان الحاجة إليه؟ فهو يصلح لإنقاذ النساء الواقعات في محنة، اكثر مما يصلح لذلك مراسل صحفي جوّالة.

www.elromancia.com

الفصل الثامن

أزاحت مادلين الغطاء عنها واستقامت جالسة تنظر إلى ميك الذي كان وضع فراشه غير بعيد عنها.

«صباح الخير يا مادلين. هل نمت جيداً؟»

نظرت إليه طويلاً، دون ان تنتبه إلى الدموع التي كانت تنهمر من عينيها.

انها لن تنطق أبداً بهاتين الكلمتين اللتين كانتا تضطربان على شفتيها «أنا أحبك».

«ما بك، يا مادلين؟»

فاغتصبت ابتسامة بينما كان هو ينقلب إلى جانبه تحت غطائه قائلاً: «حاولي ان تعودي إلى النوم، وعندما ترتفع الشمس في السماء، سنلقي نظرة على أنحاء المكان في الخارج، آملين ان لا يكون هناك الكثير من الخراب من أثر الزلزال، وبعد ذلك يمكننا ان نذهب إلى المدينة لتناول الافطار.»

كانت تعلم انه كاذب بالنسبة لهذا الأمر وذلك كيلا يسبب لها القلق وانه يعتقد حقاً انهما يناضلان ضد احتمالات انسداد الطريق التي يسلكانها. فالفرق بينهما هو انه بينما هو يرجو ان تتحقق آماله، فقد كانت هي تأمل في ان لا تتحقق، ذلك ان حياتها أثناء الست ساعات الأخيرة، قد تغيرت تماماً كما قال اثناء العشاء ان هذا سيحدث، فقد بهت مصير المنتجع بجانب تعاظم مشاعرها نحوه، ان امامها

بقية حياتها يمكنها ان تمضيها في الأسف على اهمالها المنازل القديمة، ولكن ليس لديها سوى ساعات قليلة تمضيها مع الرجل الذي تحب.

من الغريب أنها عادت إلى النوم، ولم تستيقظ إلا عندما أخذت بيغليغ تحك أنفها الرطب في عنقها وهي تئن شاكية وكأنها تعجب من عدم نهوض سيدتها لتأخذها إلى نزهتهما الصباحية، وإذ نبهت هذه الضجة ميك، ظهر عند عتبة الباب قادماً من الردهة، وهو يقول بأدب: «آه، هذا حسن، أنت إذن مستيقظة.» ولم يبدر منه ما يشير إلى تعاطفهما الليلة الماضية سوى ابتسامة مختصرة عفوية كما يقابل بها أي رجل في حافلة ركاب، الرجل الغريب الجالس بجانبه. ومازاد الأمر سوءاً انه كان يبدو رائعاً، كان قد حلق ذقنه وسرح شعره بعكس ما بدا عليها هي من تشعث في الشعر وتهدل في الملابس.

قالت له وقد ابتدأ قلبها ينقبض أسى: «تبدو نظيفاً أنيقاً وكأنك خارج من الحمام.»

«ليس تماماً، ولكنني سخنت قليلاً من الماء الموجود في حوض حمامك، ثم استعملت إحدى مناشفك، أرجو ان لا يكون لديك مانع في هذا.»

تمانع؟ انها على استعداد لمنحه كل ما لديها لو طلب منها ذلك.

«وكذلك وجدت قهوة وبيضاً، وعندما تنتهين من ارتداء ثيابك يكون الإفطار قد جهز.»

ألقت نظرة على قميص نومها وهي تتذكر احداث الليلة الماضية، شاعرة بالخجل منه، ما كان لها أن تقلق، فقد كان

ميك مشغولاً جداً بالبحث في مطبخها عن ان يلاحظ مدى انزعاجها وارتباكها.

«أين تضعين مقلاتك، يا مادلين؟»

«على الرف الأوسط قرب الفرن.»

«نعم، ها قد وجدتها. الأفضل ان تنهضي، فأنا لا اقدم طعام الافطار في الفراش.»

ابتسمت وأجابت: «لا اتوقع منك ذلك.»

«حسناً، إذن.» وجاء إلى جانبها ينظر إليها متسائلاً: «ادر ظهرك؟»

فتمتمت تقول: «ما هي المشكلة.»

«لماذا؟»

«لأنني أخجل من النهوض امامك بقميص النوم.»

فوضع من يده المقلاة على رف المدفأة وهو يقول بسرعة: «آسف لعدم انتباهي، سآخذ الكلبة إلى الخارج ريثما ترتدين ملابسك.»

غادر البيت بينما صعدت هي إلى غرفتها حيث استبدلت ملابسها، وغاب هو مدة طويلة كانت تكفي لاغتسالها لو كان هناك ماء ساخن. ولكنها بدلاً من ذلك مسحت جسمها بماء بارد للغاية. ثم ارتدت بنطلون جينز وكنزة سميكة تكاد تصل إلى ركبتيها، ثم سرحت شعرها ووضعت بعض الزينة على وجهها، لقد افزعها شكلها ولكن كرامتها أبت عليها ان تسرف في تجميل وجهها لكي تروق في عينيه.

عندما عاد مع الكلبة، كانت هي قد اعدت الإفطار، بعد ان طوت البطانية وأعادتها إلى مكانها.

بدا ميك في منتهى البرود والجفاء، محدقاً اثناء تناول

الطعام، إلى النار، لا يكاد يشاركها الحديث، وإذ كانت تنظر اليه وقلبها يهفو نحوه، كان يبدو عليه وكأن المشاعر العاطفية، أبعد شيء عن ذهنه. أخيراً قال: «ان الأمور هناك أسوأ مما كنت أتوقع. أرجو ان لا يكونوا في انتظارك في العمل وذلك ليوم أو نحوه، ثمة اشجار كثيرة في أرضك قد سقطت، كما ان طريق بيتك مسدود في ثلاثة أماكن على الأقل.»

تبخرت فرحتها لكونهما بقيا معاً منعزلين عن العالم دون طريقة مباشرة للخلاص، تبخرت إزاء الذعر الواضح الذي ظهر عليه، فسألته بلهجة جافة مماثلة للهجته: «كم من الوقت سيستغرق منا فتح الطريق، في رأيك؟»

فضحك بغلظة: «أياماً، يا عزيزتي، فنحن لا نتحدث عن شتل، بل عن اشجار أرز معمرة مئات من السنوات اقتلعها الزلزال والعواصف، ونحن محظوظون حقاً لأن المنزل لم ينهدم فوق رؤوسنا.»

«هناك من سيأتي من المدينة ليطمئن علينا.»

«لا تأملي خيراً، فقد ذهبت إلى المنتجع، فوجدت جزءاً من السقف قد انهار، ونصف المداخن قد تهاوت فوق بيتي المتنقل، ما جعله حطاماً، كما ان الطريق إلى هناك قد تدمر بشكل بالغ.»

أتعني...»

«لقد اصبحنا معزولين، ولا أدري إلى متى، ربما المدينة الآن في حالة طوارىء، وهكذا لا تتوقعي ان ترى فريق الإنقاذ يظهر على عتبة بيتك في وقت قريب.»

«بإمكانهم ان يخرجونا من هنا بالزورق.»

أجاب ساخراً بشكل مهين: «استعملي عقلك يا مادلين، لا يوجد أمل في مثل هذه العواصف.»

«ليس من الضروري ان تكون بهذه الفظاظة.»

قالت هذا بحدة وقد تملكتها التعاسة وهي تتابع قائلة: «ليس الخطأ خطإي في كل هذا، وعليك ان تكون شاكراً لأننا نجونا، كان يمكن ان تكون الأمور أسوأ كثيراً.»

فنظر اليها مكتئباً: «أحقاً؟ وكيف؟»

«لو كنت نائماً في عربتك أثناء الزلزال، لكنت الآن ميتاً، ولكنك بالطبع، كنت هنا وكنا نسهر معاً.»

قال عابساً: «لم يكن عملنا ذاك حكيماً، وأنا بصراحة لا أدري إلى أين تتوقعين ان تنتهي بنا هذه العلاقة.»

«ليس في مكتب الزواج إذا كان هذا ما يقلقك، ذلك انك لم تتعد عليّ، وبالتالي لن تجر إلى حيث يعقد زواجنا والبندقية في ظهرك.»

فقال بازدراء مترفع سحقها سحقاً: «انني اعلم ذلك طبعاً.»

«إذا كنت تخاف من ان أطاردك بمشاعري فأرح نفسك من هذه الناحية، فأنا لست غبية إلى هذه الدرجة.»

تملكها الندم لهذا القول الرخيص منها حتى قبل ان ترى نتيجته في احمرار وجهه، فتمتمت تقول: «انني آسفة، ما كان لي ان اقول ذلك، فأنا لن أنسى أبداً شهامتك نحوي الليلة الماضية.»

قال بلهجة متعبة: «الأفضل لنا نحن الاثنين، ان ننسى هذه الأمور، يا مادلين، فما حدث الليلة الماضية لا علاقة له بأية مشاعر غرامية وإنما هو يتعلق بالمشاعر

الانسانية التي تربط بين الناس إبان الأحداث المأساوية.»

فسألته: «هل انت واثق من ذلك؟»

سكت طويلاً لا يجيب، وبدلاً من ذلك قام يرتدي سترته ثم يفتح الباب الخلفي، وهو يقول: «لم أعد واثقاً من أي شيء.» ثم خرج مغلقاً الباب خلفه.

لم يكن النهار صالحاً للخروج للنزهة، فقد كانت الريح تعصف وهي تسوق المطر أمامها، ومهما كانت المهمة التي ذهب لأجلها، فقد كانت مادلين واثقة من انه سرعان ما سيعود، شغلت نفسها بتنظيف المطبخ والمدفأة، ثم اشعلت مدفأة غرفة الجلوس أيضاً لتبديد الصقيع المتجمع في أنحاء المنزل منذ الليلة الماضية.

عندما حان وقت الظهر دون ان يعود ميك، اطعمت الكلبة، وصنعت شطائر لها ولميك ثم لفتها بقطعة قماش لكي تحتفظ بطراوتها. وعند الساعة الرابعة كانت تجلس وحيدة وقد تملكها القلق، واثقة من ان حادثاً قد حدث له.

في الخامسة، كان النهار قد اظلم مبكراً دون ان يبدو له أثر، فخرجت من المنزل تاركة كلبتها في داخله، رغم نباحها المستاء، لتأمن عليها من عوادي الجو، ثم اتجهت نحو المنتجع تبحث عن ميك حيث انه المكان الوحيد الذي قد يكون ذهب إليه، كان الحديث عن هذه المهمة أسهل من القيام بها، كما يقولون، كانت الرياح العاصفة تدفعها إلى الأمام، والأمواج العملاقة تتدافع مزبدة على الرمال تملأ الهواء رذاذاً كان يصفع وجهها وعينيها، فكانت تتخبط في سيرها كالعمياء.

عندما وصلت إلى منتجه تايلور، كان ضوء النهار قد تلاشى، ما بدت معه الصخور وكأنها حقل من الألغام. وكانت تعلم ان المنتجع مازال يبعد مئات من الأمتار، كما كانت تعلم أيضاً انها، حتى أمس، كانت قادرة على ان ترى المداخن ترتفع نحو السماء، ولكنها الآن لم تجرؤ على النظر، رغم ان معالم الأرض المألوفة مازالت كما هي. كان كل ما بإمكانها ان تقوم به، هو ان تحاول الاحتفاظ بتوازنها إزاء لفح الرياح لها وهي تتلمس طريقها حول الصخور، كان المد والذي كان اكثر علواً من المألوف يرتطم بكاحليها، ورغم انها كانت سارت على هذا الشاطىء آلاف المرات من قبل، الا انه بدا لها الآن بمثل غرابة سطح القمر. فكيف بالنسبة إلى ميك، ذلك الغريب، وما عسى ان يكون صنع؟

ماذا لو كان تزحلق وكسر ساقه؟ ماذا لو انه ميت، بعد ان غرق في ماء عميق إثر خطوة خاطئة؟

تملكها خوف طاغ بلغ من قوته ان اخذت تتساءل عما إذا من الممكن ان تتحرر منه مرة أخرى، فقد ضاعف من احساسها بالخطر، ومن تصوراتها بحيث انها عندما انطلق غصن شجرة من تحت الأمواج فجأة ظنته ذراع رجل.

بدأت خطواتها في التخبط والإنزلاق وقد اختلط عليها شكل الصخور بالأعشاب، وعندما اشتبكت قدمها باغصان شجرة تحت الماء، فقدت موقع قدميها ووقعت على وجهها في المياه المزبدة.

• • •

أخذ ميك يعمل حتى أوشك ان يقع إرهاقاً، ولم يقف إلا

بعد ان ابتدأ ضوء النهار في الخفوت وابتدأ يشعر بالخوف من ان يخطىء فيبتر قدمه بالفأس الصدىء الذي وجده في المخزن في أرض مادلين.

أخذ يحملق في الأرزة الساقطة، كان قد قطع بعض فروعها، ولكن الضربات القوية التي سددها إلى جذعها كانت أشبه بخدوش مقص اظافر، كان طريق المنزل مازال مسدوداً، ولم يكن هناك مناص من ان ينجو لا من مادلين ولا من قضاء ليلة أخرى معها.

بعد سبع ساعات تقريباً، كان إنجازه هو ألم في ظهره وفي يديه، وذهن مرهق وهو يحاول الخلاص من الورطة التي ليس منها خلاص سريع.

ما الذي جعله غير قادر على مقاومة مادلين؟ فهما غير متماثلين بشيء، فهو يحب النساء اللواتي لديهن حس المغامرة، واللاتي يرقى طموحهن إلى شيء هو غير العثور على رجل والاستقرار معه. ورغم ان مادلين تحاول ان تتسامى برغباتها الحقيقية إلى المحافظة على المباني القديمة، إلا انها من انصار العلاقات الثابتة الوطيدة، وما بينهما الآن ليست علاقة سواء كانت ثابتة، أم لا، وهو يرفض ذلك.

أخذ طريق العودة إلى المنزل وهو يشتم، راجياً ان يكون العداء الذي كان نشأ بينه وبين مادلين ذلك الصباح هو أقوى من عزيمته المتراخية، ذلك ان الحقيقة المحزنة في الأمر هي انها وقعت من نفسه منذ اللحظة التي رآها فيها، وليس لديه أي عذر أو انكار لذلك.

لم يكن يستطيع ان يفهم هذا الأمر. فهو ليس من عادته ان

يفقد سيطرته على نفسه، لقد عرف قبلها نساءً كثيرات، ولكن لم يكن لهن مثل هذا التأثير عليه، كما انه لم يسمح لامرأة بأن تميل به عن هدفه الشخصي أو طموحه، إلى الآن.

كانت رئيسة لجنة التراث الجميلة الساذجة قد حولت خططه إلى خراب. فميك هاميلتون الماكر قد تحول إلى شخص مرتبك هو غير ذلك الرجل الحاذق المتمرس المهذب كما كان يتصور نفسه.

وهكذا لم يبق لديه من خيار سوى العودة إلى حيث دماره، حيث ينتظره الإغراء، حمل الإحباط إلى ذهنه أول ومضة من الخوف، وهو يقترب من المنزل فلا يرى ضوء الشموع يبدو من خلال النوافذ يتبعها ومضة أقوى عندما لم ير أثراً للدخان يتصاعد من المداخن.

«تباً لك، يا مادلين، إذا كنت قد تركت تلك النار تنطفىء.»

اخذ يشتم محاولاً ان يغطي توقعه للشر، بالغضب، ولكن الرعب تملكه عندما فتح الباب الخلفي فلم يجد سوى بيغليغ في انتظاره تحييه، كان المطبخ دافئاً ما انبأه بأن مادلين لم تهمل واجبها منذ وقت طويل، ولكنه أدرك حتى قبل ان يبحث عنها، انها ليست موجودة في المنزل، ولكن هذا لم يمنعه من ان يختطف مصباحه اليدوي ثم يأخذ في تمشيط المكان بحثاً عنها، ولم يتوقف إلا ليضع مزيداً من الوقود التي كانت اشعلتها في غرفة الجلوس.

«أين انت يا مادلين؟»

لكن دقات ساعة المطبخ منبئة بأن الساعة هي السادسة، كانت هي الجواب الوحيد لندائه.

وصرخ بالكلبة غاضباً: «ما الذي تملكها حتى جعلها

تخرج من المنزل في هذا الجو؟» لكن الكلبة أخذت تتسلق ساقيه في ألم وعطف، بينما كان هو يتابع صارخاً: «إلى أي مكان تراها ذهبت؟»

لكن خاطرة وثبت إلى ذهنه فأصابته في الصميم، ذلك لأن المكان الوحيد الذي لا بد ان تكون ذهبت إليه، هو المنتجع، وتجمد دمه رعباً إذ أدرك هذا.

همس لنفسه ومنظر الجدران والحجارة المتداعية يملأ ذهنه: «آه، كلا. كلا، لا يمكن أن تذهب إلى هناك.»

* * *

تجنبت اصابة خطرة حيث سقطت في مياه ليست أعمق من متر واحد، ولكن هذا كان كافياً لأن يبلل ثيابها تماماً ويتركها تشهق ملتمسة الهواء.

حتى المياه السطحية شكلت لها خطراً حيث اخذت تتقلب بين الأمواج التي كانت تتدافع بفعل عصف الريح، ومحاولتها العودة إلى تسلق الصخور كان بمثابة التسبب لنفسها بكارثة، ولم يكن امام مادلين من خيار سوى التحول نحو الجنوب، نحو الشاطىء الممتد نحو منزلها، وهي رحلة أوهنت قواها بشكل مخيف.

وإذ خدّر حواسها البرد، اخذ المد يرتفع بها وينخفض، مما جعلها تتلمس مواقع اقدامها وهي تترنح، تغرق في الوحل تارة، وتتعثر بالعشب المتراكم تارة أخرى، وقدماها تجرجران حذائيها بينما ثقل ملابسها المبتلة قد جعل السباحة مستحيلة.

لماذا كل هذه الصعوبات؟ كان المفروض ان يكون الأمر

أسهل مما رأت، فقد كانت تعلم ان الشاطىء لا يبعد سوى ياردات قليلة، وأنه كان بإمكانها ان تجتاز تلك المسافة بثوان قليلة مثل العادة، لكن الأمر كان اليوم مختلفاً، حيث لم يكن ثمة قبس ضوء من السماء أو من المنزل ليرشدها.

أمسكت بها موجة فأرسلتها إلى القاع مرة أخرى وقد انقطع نفسها لشدة الصدمة وتملكها الخوف على نفسها، لكنها عادت تتلمس خطواتها إلى الأمام مستخدمة ذراعيها مجذافين، ولكن الرياح العاصفة ازدادت عنفاً، ما جعلها تعجز عن الحركة والتقدم.

بدّد الإرهاق كل ما بقي لديها من قدرة على الاحتمال. وامتد بها الذعر إلى حافة الهستيريا، فقالت وهي تلهث بينما تخلع عنها معطفها الواقي من المطر وتلقي به في الماء: «اغرق إذن، إذا كان هذا ما تريده. ولكني لن ادعك تأخذني معك.»

أخيراً جاء المد لإنقاذها، حيث ألقى بها على الشاطىء ثم تركها هناك غاية في الإرهاق والتعب، وعندما حاولت ان تقف، إلتوت ساقاها تحتها، فقد كانتا من الضعف والإهتزاز بحيث لم تستطيعا حملها، وبين الزحف والترنح، شقت لنفسها طريقاً وعراً إلى المرتفع، يحثها على ذلك إدراكها انها عندما تصبح على كثبان الرمال، تكون قد حمت نفسها من أسوأ ما تأتي به العاصفة.

خدعها الفسق بتغييره للمعالم المألوفة، مرة أخرى، فقد بدا لها الشاطىء مكاناً مهجوراً مخيفاً قد هجره حتى طيور النورس، وعندما دارت فوق أول صف من الكثبان، لم يعد البرد يسري في عظامها، واخذت تفكر في بيتها الدافىء

الأمين، ما شجعها على التقدم للتمتع بما يقدمه اليها من ذلك الدفء والأمان والراحة، «هذا حسن...» اخذت تهذي بذلك وهي تعجب للسبب الذي جعلها تشعر وكأنها تسبح.

ولكن ما أهمية ذلك؟ فقدماها لم تعودا باردتين كما ان اسنانها قد توقفت عن الإصطكاك، وها هي ذي الكثبان تحيط بها تحميها، فالخطر قد أصبح خلفها ولم يعد امامها، وكان شعورها بالنعاس لذيذاً إلى حد لم تجد معه بأساً من ان تجرب غفوة ترتاح فيها.

لكنها ما لبثت ان ضحكت لسخافة هذه الفكرة، ثم علا ضحكها وهي ترى كيف حملت الريح وشاحها ودارت به حول رأسها.

وإذ برحت بها الكآبة والحزن، إذا بفجوة منسقة تنفتح عند قدميها... ربما هي نفس الفجوة حيث التي كانت أمضت مع ميك أمسيتهما الأولى معاً، من المؤكد انها افضل مكان في العالم يمكنها ان ترتاح فيها، وهكذا اخذت تحبو على يديها وركبتيها لتغوص في حضنها الدافىء.

رحبت بها الرمال العميقة المريحة كلحاف محشو بالريش، رغم غزارة المطر... ووسدت رأسها ورفهت عنها. انها ستبقى هنا... فترة قصيرة فقط، فقد كانت من الإرهاق والتعب... بحيث لن تتمكن من متابعة السير...

* * *

ما كان ليعثر عليها قط من دون بيغليغ حتى هذه قد انزعجت وفقدت حاسة الشم عدة مرات، وأخيراً عثرا على مادلين بشكل مفاجىء كاد ميك معه يدوس عليها، وهذا

وحده كان صدمة كافية له، ولكن عندما انحنى ورأى على ضوء مصباحه ان عينيها كانتا مغمضتين، تملك قلبه الهلع.

«تباً لذلك.» همس بهذا وهو ينحّي الكلبة ويوجه نور المصباح بحيث يسقط على وجه مادلين.

كانت متكومة على نفسها وقد لفت يديها حول وسطها، وعندما مدّ يده يلمس عنقها، اهتزت كورقة الشجر.

الفصل التاسع

تحسس ميك منها النبض، ولكن جلد مادلين كان مبتلاً، ووجهها بشحوب الأموات، أما بالنسبة إلى ملابسها المبتلة تماماً، فلا بد انها كانت فقدت عقلها وهي تطوف في الأنحاء في ليلة كهذه، دون معطف واق.

لكنه عندما حاول أن يحملها، رأى ان ليس المطر وحده هو الذي بلل ملابسها، كما أنه ليس كما خاف في البداية، أنها وقعت على رأسها ففقدت وعيها.

ذلك انها لسبب ما، كانت تسير في البحر، كما لاحظ من الأعشاب التي كانت مشتبكة بشعرها وثيابها، كان واضحاً ان ذلك العدو المهلك الغادر، الهستيريا قد هاجمها. وأدرك أنه إذا كان يريد إنقاذها حقاً، فليس هناك وقت يضيعه.

خلع سترته ولفها بها ثم ربطها على جسمها بمقود الكلبة ثم حملها على كتفه بوزنها الذي يبلغ الستين كيلو غراماً على الأقل، ثم التقط المصباح ليتوجه بعد ذلك إلى المنزل آملاً بأن يكون لدى الكلبة، من العقل، ما يجعلها تتبعه.

وصلت معه إلى الباب وهي تدور حوله قافزة بقلق.

كانت النار في مدفأة المطبخ قد خمدت تماماً، ولكن مدفأة غرفة الجلوس كانت ماتزال تتألق باللهب، وهكذا وضع مادلين على الأريكة القائمة قبالة النار، دون اهتمام بغطائها الثمين، ثم رفع عنها سترته.

سرعان ما اندفعت الكلبة إلى جانب سيدتها وهي تثبت نظرها على وجهها.

فقال ميك آمراً: «انتبهي اليها حتى أعود.» ثم أسرع صاعداً السلم إلى حيث أحضر بطانيات ومناشف وهو يلعن انقطاع الكهرباء الذي حرمه من تسخين الماء لها، شاتماً الحظ الذي وضعه في هذا المكان المظلم في مثل هذا الوقت المظلم، ومتنمراً بغضب من مادلين لحماقتها في اقتناء قميص قطني واحد لم يستطع ان يعرف أين كانت وضعته.

وعندما اصبح عندها مرة أخرى، جلس لمهمة وجدها صعبة للغاية إذ أخذ ينشف وجهها، وكانت هي بين يديه كدجاجة ميتة، ثم مددها ملتفة ببطانية امام النار.

اخذ يتمتم وهو يدعك اطرافها بالمنشفة: «تباً لك يا مادلين، ليس لك الحق في ان تجعليني اعاني كل هذا، ليس لك الحق على الاطلاق.»

وإذا بها تجيبه بأنين احتجاج واهن، كان صوتاً أشبه بالموسيقى في أذنيه.

وتدريجياً، أخذت تعود إلى وعيها، وطوال الوقت كانت تشكو وتتذمر بكلمات غير مترابطة، ثم ما لبث ان رأى على ضوء اللهب، اجفانها تخفق، ثم سمعها تتمتم: «كم الساعة الآن؟»

ثم انقلبت على جنبها حيث اخذت تنظر إلى الغرفة وقد أنارها اللهب المشتعل في المدفأة.

قال لها: «اننا هنا معاً امام نيران المدفأة في غرفة جلوسك.»

بقيت لحظة تفكر في ذلك، ثم سألته: «لماذا؟»

«لأن عقلك هو عبارة عن حبة بطاطا مهروسة يا مادلين، لأنك رأيت ان تخرجي لتمشيط الشاطىء وذلك في وسط أسوأ عاصفة في التاريخ الحديث.»

قطبت جبينها، ثم عادت تغمض عينيها لحظة قصيرة، فعلم ان ذاكرتها تعود إليها. وأخيراً قالت: «لم استطع الوصول إلى حيث اردت.»

«انها ليست خطوة ذكية، يا عزيزتي.»

رفعت بصرها إليه وكانت اجفانها ماتزال ثقيلة بشكل هزلي: «كل ذلك كان ذنبك.»

فسألها: «وكيف؟»

أجابت: «ذهبت للبحث عنك، ظننتك تركتني.»

فقال بصوت مختنق: «لم اتركك تماماً بعد، وعلى كل حال، إلى أين سأذهب؟ فقد سجنا هنا، هل نسيت؟»

«ظننتك عدت إلى عربتك هارباً مني.»

«العربة تدمرت، والمدخنة تهاوت فوقها، هذا إذا كنت نسيت، وما كان لك ان تذهبي إلى هناك بينما تعلمين ان المبنى غير آمن.»

«يا لك من متحكم.» ثم نظرت إلى نفسها ملتفة بالبطانية، رفعت طرفها ثم اعادته إلى مكانه وهي تنظر إليه قائلة: «لماذا أنا هكذا؟»

«حسناً، عندما عثرت عليك، كانت ملابسك كلها مبتلة.»

قال ذلك برصانة، كان رجلاً قد حصّنه عمله وأسفاره ضد الكوارث، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي جعلته قادراً على مجابهة مآسي الانسانية في العالم، ولكن عثوره على

مادلين غائبة عن الوعي وبشحوب الموتى، جعلته يشعر بالرعب، وهذا لم يعجبه على الاطلاق.

فقال: «في حالة لم تكوني تدركين ذلك، يا مادلين، فقد تعرضت للبرد مدة طويلة، ولو لم تقدني كلبتك الأمينة إليك، لما كنا الآن نخوض في هذا الحديث. فالهستيريا إذا تمكنت من شخص سرعان ما تذهب به.»

رددت كلمته وهي ترتجف: «الهستيريا؟»

«نعم، بالضبط.»

سكتت طويلاً، ثم عادت تقول بصوت ضعيف: «انك انقذت حياتي، أليس كذلك؟»

أجاب وهو يلقي مزيداً من الحطب في المدفأة: «هذه المرة فقط، ولهذا لا تتوقعي مني ان أتخذ هذا الأمر عادة، فأنا لست من ذلك النوع الذي يتعقب الفتيات اللاتي يقعن في المحن، إذا كان بامكاني تجنب ذلك، والآن عليك ان ترتدي ملابس سميكة لتتوقي بذلك تيارات الهواء.»

سكت فترة قال بعدها: «انك تعلمين انني على صواب في ان احتفظ بمسافة بيني وبينك، كما انك تعلمين أيضاً ما سيحدث بيننا إذا لم نفعل ذلك، يا مادلين فهذا يسبب تحطماً في القلب، ولهذا أرجوك ان توفري علينا نحن الاثنين، الحزن، وهكذا أرجوك ان تخبريني اين قميصك الدافىء لكي ترتديه بينما أذهب أنا إلى المطبخ لكي أجهز شيئاً نأكله.»

فقالت: «انه تحت مناشف مبتلة في سلة الغسيل، ولكن لا تهتم بي، فأنا قد اصبحت في صحة تؤهلني للصعود إلى

غرفتي من دون مساعدة، وكن واثقاً من أنني سأجد قميصاً آخر ألبسه، وبذلك لن يجرح احساسك.»

انتظرت مادلين إلى أن سمعت صوت قرقعة الأواني في المطبخ، ثم أسرعت تصعد السلم، ان حماماً ساخناً سيفيدها في التخلص من آثار البرد الذي تغلغل في جسمها.

على كل حال، مادام لم يبق من الماء في الحوض سوى مقدار ضئيل، فقد اقتصرت على غسل سريع لجسمها أزالت منه آثار المياه المالحة. اما اختيارها لما تلبس فقد كان هو أيضاً محدوداً.

كانت قد عادت لترقد بين البطانيات امام مدفأة غرفة الجلوس عندما دخل ميك الغرفة وهو يقول: «لقد أطعمت بيغليغ ثم فتحت لها الباب لتخرج.» ثم وضع أمامها صينية عليها الطعام ومعها ابريق وهو يتابع: «وهي الآن نائمة في فراشها، في رأيي ان نأكل الآن ثم ننام نحن أيضاً، وذلك توفيراً للشموع، إلا اذا كان لديك منها مجموعة أخرى في مكان ما نسيت أن تذكريه.»

«كلا، مع الأسف.»

«لا اظن ان لديك راديو يدور بالبطارية، وذلك في مكان ما في المنزل، كذلك.»

فأومأت برأسها نافية.

قال: «انك لا تستعدين للطوارىء، أليس كذلك يا مادلين؟»

ردت عليه بحدة: «ان لدينا طعاماً، أليس كذلك؟»

«هذا فقط ما أهنئك عليه، والآن دعينا نبدأ بتناول الطعام، فأنا جائع جداً.»

لم تكن بحاجة إلى دعوة أخرى، فقد كانت جائعة هي

أيضاً، وضعت وسادة وراء ظهرها استندت إليها ثم تناولت منه صحن الحساء الذي قدمه إليها، كان قد سخن حساء الطماطم ثم صنع شطائر من بقايا الدجاجة المشوية التي كانت اشترتها من السوبر ماركت.

اخذا يأكلان بصمت، وكل منهما يتجنب النظر في عيني الآخر، واخيراً سألها وهو يحمل الابريق: «أتريدين كاكاو؟»

«نعم، من فضلك.»

عادا إلى الصمت اثناء سكبه الشراب، واستمر كذلك اثناء بسطه للفراش جاعلاً مسافة ستة اقدام بينه وبين فراشها، ثم زود المدفأة بمزيد من الحطب وهو يقول: «لقد أعدت اشعال مدفأة المطبخ أيضاً.»

فقالت بتوتر: «في هذه الحالة، ربما تفضل النوم في المطبخ، فالغرف المنفصلة هي افضل من الفراش المنفصل، كما تعلم.»

ألقى عليها نظرة طويلة مفكرة، ثم انحنى على المدفأة وهو يحمل فنجان الكاكاو بين يديه، ناظراً إلى السجادة تحت قدميه، ثم قال: «بالعكس، من التأثير الذي تركته فيك في بداية تعارفنا انا احاول ان لا اتعود على غش الآخرين، أو الدخول في علاقة لمجرد المتعة المؤقتة. انني افضل ان اكون مستقيماً في علاقاتي، الشخصية منها والعملية.» رفع رأسه وأخذ ينظر في عينيها مباشرة وهو يتابع: «ارجو ان تجعلي ذلك في ذهنك لأجل ما اشعر بان عليّ ان اقوله بعد هذا.»

أجابت بنبرة مؤلمة: «اظنك قلت ما فيه الكفاية، وأنا غير واثقة مما إذا كنت أريد ان اسمع اكثر من ذلك.»

فقال برقة: «لم اكن انوي ان اجرحك يا مادلين.»

«آه، أحقاً؟ ما الذي كنت تنويه، إذن؟»

تنهد وهو يضع فنجانه بجانبه على رف المدفأة: «لقد جئت إلى هنا لأن جدي كان يهمه ان تبقى املاك سبندريفت في الأسرة، ولم يكن في نيتي البقاء هنا يوماً اكثر مما يقتضيه أمر تنظيم الأمور، ولكن حتى قبل ان ابدأ، وجدت نفسي مقيداً، لأدرك بعد ذلك انني مقيد اليدين وذلك بتحريض من رئيسة لجنة تاريخية متطفلة، وخيل الي ان بإمكاني ان اتخلص منها ومن اعتراضاتها بسرعة ولكنني عند ذلك قابلتك ووقعت...»

سكت وهو يبلل شفتيه، ثم جذب نفساً عميقاً: «وقعت في فخ التعلق بك، لم اجدك كما كنت توقعت ان تكوني، وجدتك جذابة للغاية، انك تعلمين ذلك، ولكنني لا اظنك تدركين مداه، أو مقدار السهولة في الغرق بتلك الجاذبية مرة أخرى، وتبرير ذلك بتقديم تعهدات نعرف مسبقاً نحن الاثنين اننا لن نهتم بها، وأنا اضع خطاً تحت هذا النوع من النفاق.»

فهمست وقد امتلأت عيناها بالدموع: «وماذا اذا كنت أنا لا اطلب تعهدات؟»

فقال بخشونة: «بل عليك ذلك، فأنت تستحقينها، انك بحاجة إلى زوج، إلى شخص يزودك بكل ما لم تحصلي عليه من مارتن، وانا لست ذلك الرجل، يا مادلين، انني صحافي دون عنوان ثابت، انتهازي الفرص، لاذع السخرية مرهق على الدوام.»

فقالت بصوت يتهدج حزناً: «انك لست رجلاً بالغ الطيبة.»

«كلا، انا لست كذلك، فكلمة طيب ليست هي الصفة التي يطلقونها عليّ كثيراً، ان فارسك ذا البذلة الكحلية اللون هو رجل طيب، ومن الأفضل لك ان يكون نصيبك في الحياة.»

«الحق معك، عليّ ان افعل ذلك، فهو آمن وجيد ويعتمد عليه.»

«بالضبط.»

قال ميك ذلك، وأدركت ان ما تخيلته سحابة ألم تعبر عينيه ما هو سوى تمنيات منها، وكان هو يتابع قائلاً: «انه الملتزم بالقانون.»

«بعكسك انت، انك...» وتنفست بحدة، تريد ان تثأر لكرامتها بتوجيه الإهانة اليه: «انك مغامر، متمرد، والحياة معك لن تكون مريحة ابداً، وانا بحاجة إلى رجل يمكنني الركون اليه.»

«وأنا بحاجة إلى امرأة مستقلة الشخصية، قوية في طلب حقها، امرأة تجرؤ على أن تكون متمردة هي أيضاً، اذا دعت المناسبة.»

«اتعني امرأة تماثلك؟»

«نعم.»

اغرورقت عيناها بدموع الغضب: «حسناً، لا انكر انك اعظم واقوى وأعلى صوتاً مما ساكونه قط. ولكن اكثر شجاعة؟ لا اظن ذلك، فأنت لن تستطيع أبداً ان تنطق بكلمة (حب) وليس فقط ان تسمح لنفسك بالشعور به، انك عديم المشاعر، وأنا اشفق على المرأة التي تمنحك قلبها.»

عاد ينظر اليها، وخيل اليها انها لم تر قط عينين بمثل

هذا الفراغ، ثم قال: «إذن عليك ان تشكريني بدلاً من الصراخ في وجهي.»

همست وقد خمد القتال في نفسها: «اعلم ذلك اعلم ذلك، ولكن لماذا اشعر بكل هذا الألم؟»

أوشك ان يمد يده ليمسك بيدها، ثم غير رأيه في اللحظة الأخيرة: «احياناً... وفي النادر... يبدو ان شخصين مختلفين.. يمكنهما ان يرتبطا...»

يرتبطا؟ نعم، هذه الكلمة تصف بالضبط شعورها عندما عرفته لأول مرة.

قال: «ولكن هذا لا يدوم، انه فقط احد تلك الأشياء التي تحدث احياناً عندما يحدث ان يجدا نفسيهما يشتركان في وضع غير عادي في وقت غير عادي، وفي اللحظة التي تعود فيها الأحداث إلى طبيعتها، ينحل الارتباط ذاك، ويعودان إلى حيث كانا من قبل، ومن ثم يلملم كل منهما خيوط حياته المنفصلة.»

فقالت: «أشبه بالعطلة الشاعرية؟»

«بالضبط.»

كادت الغصة في حلقها تمنعها من النطق بالسؤال التالي: «انك ستسافر حالما تخرج من هنا، أليس كذلك؟»

«نعم.»

عند ذلك طفرت الدموع من عينيها وهي تسأله: «ألن تعود أبداً؟»

سكت مدة طويلة قبل ان يجيب: «سأعود فقط إذا انا وجدت ان ارتباطنا مازال موجوداً، رغم الزمن والبعاد.»

«وهل تظن انه سيبقى؟»

لم يجب، لم يكن بحاجة إلى ذلك، وقد عرفت هي الجواب من الطريقة التي نظر فيها إليها بكل حزن وعاطفة مشبوبة، وكأنه يتمنى لو انها لم تضعه في موقف يجعله يؤلمها مرة أخرى.

• • •

اثناء الليل، هدأت العاصفة داخل البلاد.

وكانت الشمس لم تكد ترتفع فوق الأفق الشرقي. في الصباح التالي عندما حطت مروحية تابعة لفرقة انقاذ حرس الشواطىء في مرج قريب من المنزل، وقف ميك بجانبها عند نافذة المطبخ حيث اخذا يراقبان هبوط الطائرة وهو يقول: «اظن فريق الانقاذ قد وصل لتوه.»

«نعم.» تمتمت تجيبه بذلك، شاعرة بفراغ في داخلها كاد يدفعها إلى البكاء، اين هو الشعور بالارتياح والسرور لانتهاء محنتهما هذه؟

«انظري من هو رئيس الاستعراض هذا.» وانحنى ميك على عتبة النافذة ثم التفت ينظر اليها بينما كان آندي يتقدم نحو المنزل.

بدت على ملامح ميك لمحة مما قد يكون ابتسامة عابرة وهو يقول: «من الأفضل ان تخرجي لكي يرى انك مازلت حية، إذ لا اظنه قد غامر بحياته هكذا لكي يطمئن عليّ أنا.»

قالت وهي تتمسك بأول عذر لها لكي تتجنب ما ليس منه بد: «ان بيغليغ خائفة.» ذلك انها لم تستطع ان تتحمل فكرة ان العالم الخارجي إذا تدخل، فان هذه الفترة من

حياتها مع ميك تكون قد انتهت، وكانت تتابع قائلة: «انك تعرف مبلغ خوفها من الضجة المرتفعة، لا استطيع ان اتركها.»

فقال بحزم: «بل عليك ذلك، وسأبقى انا معها، هيا اذهبي، يا مادلين الحلوة، فالشاب المسكين لا بد عانى كثيراً حتى الآن، وانا واثق من انه كان يتساءل عما إذا كنت بخير، فلا تجعلي الأمور أسوأ بالنسبة اليه.»

توجهت نحو الباب وعيناها تتذكران منظره هناك، في بيتها، حيث عرفت الحب الحقيقي، وأرادت ان تصرخ، ما الذي سيحدث لي، وماذا بالنسبة الينا نحن؟ أنا وأنت؟

لكنها كانت قد سبق وعرفت جوابه على هذا، لم يكن هناك كلمة نحن بالنسبة إلى ميك. ولن تكون قط.

قابلها آندي عند أول درجات المنزل، فهتف بها: «هل انت بخير؟ ما اشد سروري بذلك.»

هي بخير؟ وكيف يمكن ان تكون بخير وقلبها يتمزق، دون ان تعرف كيف تواجه بقية حياتها؟ وانفجرت بالبكاء.

فقال: «لا بأس، يا حبيبتي، كل شيء قد انتهى الآن، فأنا ساعيدك إلى المدينة حيث يمكنك ان تبقي معنا إلى ان تعود الأمور إلى طبيعتها، ان والدتي بانتظارك.»

فقالت باكية: «وماذا بالنسبة الي الكلبة؟»

«طبعاً سنأخذها معنا، فلا تبكي يا حبيبتي، انني سأهتم بكل شيء، احضري فرشاة اسنانك وأي شيء آخر تحتاجينه، وساخرجك من هنا دون ان تشعري بذلك.»

أخذ ينظر إلى وجهها بحب بالغ وهو يتابع قائلاً: «من حسن

الحظ ان الجو قد استقر اخيراً ما امكننا معه ان نصل اليك، لا أدري كيف كان يمكنني ان امضي يوماً آخر دون ان اعلم ما اذا كنت على قيد الحياة أم ميتة.»

نظرت من فوق كتفها إلى حيث كان ميك واقفاً عند عتبة الباب ممسكاً بمقود بيغليغ ثم قالت: «لقد كنت بين يدين أمينتين.»

اتجه نظر آندي إلى حيث نظرت، ثم عاد إليها، ورأت في عينيه تساؤلاً ولمحة من الشك، ولكن كل ما قاله هو: «انني مسرور لأنك لم تواجهي المحنة وحدك.»

شعرت بالخزي لما رأته من شهامة في هذا الجواب وكان هو يتابع قائلاً: «هناك شيء عليّ ان اخبره به.»

أمسك بيدها يصعدها الدرجات، وكان ميك ينظر اليهما بملامح جامدة وكأنهما غريبان تماماً عنه، شعرت هي وكأنها تريد ان تصرخ، ألا يؤلمك ولو قليلاً، ان تراني بين يدي رجل آخر؟

تبادل الرجلان انحناءة، وآندي يحييه بقوله: «هاميلتون.» فيجيبه ميك: «الضابط لاثام.»

«انني مسرور لرؤيتك بخير.»

«لا بأس.»

«اشكرك... للعناية بمادلين.»

فطرفت نظرات ميك باختصار: «اهلاً وسهلاً.»

«انني سأعيدها معي إلى المدينة وانت... ربما تريد ان تأتي كذلك.»

«نعم، فليس لدي وسائل أخرى للخروج من هذا المكان، فعربتي نصف مدفونة بالمداخن التي سقطت من المنتجع،

وعليّ ان ارتب أمر سحبها بعيداً وذلك عندما يفتح الطريق إلى هناك.»

تنحنح آندي، ثم قال: «حسناً، ربما بإمكاني ان اهتم بهذا الأمر لأجلك. ذلك اننا تلقينا خبراً أمس من خلال المخفر باسمك، انه ليس خبراً حسناً... لقد رحل جدك.»

لم تتغير ملامح ميك اكثر من طرفة في جفنه، ثم قال بخشونة والكلمات تتساقط من بين شفتيه كالأحجار: «اتعني انه توفي؟»

فتنحنح آندي مرة أخرى: «حسناً، نعم، لقد توفي، انه أمر محزن بالنسبة اليك.»

قال ميك في نفس ذلك الصوت المتحجر: «ان الخبر غير محزن على الاطلاق، لقد كان يريد ان يموت.»

فأومأ آندي برأسه: «فهمت.»

ربما فهم ذلك حقاً... ربما في طبيعة عمله اعتاد ان يحمل للآخرين اخباراً كثيرة مثل هذا الخبر مما جعل لديه تفهماً افضل، للطريقة التي كان يتصرف بها الناس إزاء مثل هذا الخبر، مما لدى مادلين لأنها لم تفهم ابداً وقالت: «آه يا ميك، ما أشد أسفي.»

فشملها بنظرة باردة متفحصة وكأنها نبتة تفتحت خلال الليل، ثم قال: «لماذا؟ لقد اصبحت الحياة بالنسبة اليه عبئاً ثقيلاً. وفري شفقتك لأجل شخص يحتاجها.» وابتسم بشكل أقرب إلى السخرية، «أو شيء، إذ لا بد ان هناك منزلاً قديماً متداعياً في مكان ما يحتاج إلى خدماتك الرقيقة.»

قال لها آندي بهدوء: «اذهبي واحضري حاجاتك الضرورية، وسأرى انا هذا الأمر.»

وعندما ترددت، قال لها ميك: «انك سمعت ما قاله الضابط، يا سيدتي الرئيسة.»

هذا صحيح، وقد سمعت أيضاً التهكم في صوت ميك، ما ذكرها بعودتها إلى الحياة الآمنة، مع رجل قادر وراغب في ان يتحمل مسؤولية حياتها لأجلها، حسناً، فما دام غير مرغم على ذلك، فما هو شأنه إذن؟

قالت وهي ترمق آندي شاكرة: «لقد سمعت طبعاً، ولن أتأخر، انني متلهفة لأن اكون مرة أخرى بين أناس مهذبين.»

الفصل العاشر

حطت بهم المروحية في الموقف خلف مستشفى ادجووتر العام بعد ربع ساعة من مغادرتها جزيرة سبندريفت. وهذا الوقت لم يكن كافياً تقريباً للتعود على كلمة الوداع.

قال ميك مخاطباً مادلين مباشرة وذلك لأول مرة منذ غادرا منزلها: «والآن، أظن ان علينا ان نفترق ليذهب كل في طريقه.»

كان حشد صغير قد تجمع لاستقبالهم. اصدقاء، معارف، أناس قد شعروا بالاهتمام لما حدث لها. وكانت سادي هناك وكذلك جون مورتيمر. وشكرت مادلين كلاً منهما بصمت. لقد منحها حضورهما الشجاعة للتصرف كما تتصرف المرأة المتزنة الناضجة بين الناس، وذلك بطريقة رائعة متحضرة.

قالت ترد على ميك: «نعم. اهتم برعاية نفسك.»

«وأنت أيضاً.» ثم تراجع وأحنى رأسه، وكان على وشك ان يستقل سيارة شرطة كانت تنتظره لتأخذه الى المطار في دنسبورت عندما توقف فجأة: «بالمناسبة أنا لم أخبرك قط عن سبب قدومي إليك ليلة الزلزال.» وأخرج من حقيبة اوراقه مغلفاً. «كنت سأضع هذا في صندوق بريدك ورغم انه صار بامكاني ان اقول لك وداعاً شفهياً، بدلاً من الرحيل بجبن، إلا انني سأتركه لك على كل حال. وإذا وجدت نفسك، لأي سبب كان، بحاجة إلى الاتصال بي، ففيه رقم هاتفي والخبر يصلني عادة خلال أيام قليلة.»

www.liilas-romancia.com

اجابت: «لا اريده.» لم تكن تريد ما يذكرها كتابة بأن علاقتهما قد انتهت بتحطم قلبها. «أنا لا أريد أي شيء منك.»

فهز كتفيه دون اكتراث: «كما تشائين.» فذكرها بتلك الناحية الانطوائية من نفسه والمتناقضة مع ابتسامته الدائمة، والتي فتنتها بقدر ما نفرت منها.

قالت سادي والتي كانت الوحيدة التي سمعت حديثهما هذا، قالت وهي تندفع نحوه: «اعطني اياه. أنا سآخذه. فالكبرياء لا يمكن ان يقف ابداً حجر عثرة في طريقي.»

فقال متفكهاً لأول مرة في هذه الرحلة: «إنك امرأة غير عادية، يا سادي.»

حملقت سادي في مادلين وهي تقول: «نعم، ومن المؤسف ان هناك امرأة اخرى لا يناسبها ان تتمثل بي.»

فقال وهو يلقي بحقيبته في المقعد الخلفي من السيارة ثم يجلس بجانب السائق: «إن العالم سيكون كئيباً للغاية لو أن كل الناس كانوا متشابهين.»

ثم أغلق الباب وتحول الى النافذة ينظر منها إلى مادلين وهو يقول: «إن الفارس في البذلة الكحلية هو رجل محظوظ، يا سيدتي الرئيسة. أخبريه بأنني قلت هذا.»

ثم رحل، مغادراً حياتها بمثل السرعة التي دخلها فيها، آخذاً معه كل ما يجعل حياتها تلك حلوة تستحق ان تعاش. وعلمت في هذه اللحظة ما هو الألم الحقيقي، والجرح الحقيقي.

• • •

مضت أيام قبل ان تتمكن مادلين من العودة إلى بيتها. وأثناء ذلك كان آندي رقيقاً، حامياً، متلهفاً عليها.

وبعد ثلاثة أيام، كانت مادلين على وشك الصراخ.

قالت لها سادي: «قد تشعرين بتحسن إذا أنت قرأت الرسالة التي تركها لك ميك.»

«لا أظن ذلك. فمهما كان ما كتبه لي، فهو لم يمنعه من الرحيل.»

«ألا تشعرين حتى بالفضول، يا مادلين؟»

أجابت مادلين كاذبة: «كلا.»

فقالت سادي: «حسناً، أنا فضولية. فهل استطيع قراءتها؟»

«يمكنك ان تعلقيها على جدار غرفة جلوسك. فهذا لا يهمني.»

لم تندهش مادلين وهي ترى سادي تخرج الرسالة من حقيبة يدها، ثم تضع نظارتيها على عينيها، وتمزق غلاف الرسالة.

تمتمت وهي تشهق بذعر: «آه، كلا...» ثم ثبتت نظارتيها على أنفها وعادت إلى القراءة، ثم وضعت يدها على فمها وقالت: «آه، كلا.»

لم تستطع مادلين أن تصبر اكثر من هذا. فصاحت بها مستاءة: «ماذا؟ ما الذي قالته الأفعى ليفزعك بهذا الشكل؟»

أنهت سادي قراءة الرسالة قبل ان تناولها لمادلين وهي تقول: «اقرإيها وابكي.»

لم تكن رسالة غرامية. فقد كانت مادلين تشك في أن ميك يعرف كيف يكتب عن العواطف، مهما كانت مهارته كمراسل صحفي ولكنها كانت رسالة حافلة بالتأمل والتفكير. وقد كتبها بنفس الصراحة التي يتحدث بها.

بعد ان تجاوزت ما ابتدأ به من اعتذارات عن كل ما كان قام به وما كان له ان يفعله، لأن التفكير فيها كان يحيي لديها ذكريات مؤلمة، ركزت اهتمامها بالفقرة التالية.

(سأرحل الى شرق أوروبا في خلال اسبوع، ثم اعود الى آخر بقعة ساخنة... وهو المكان الذي سيكوّن خبر الغد... وعندما تتصاعد فيه القسوة والوحشية... وهذا ما سيكون... فإنني سأغمض عيني واتصورك أنت وبغيليغ في زاويتكما الصغيرة... كوني سعيدة، يا مادلين الحلوة، وارجوك أن لا تبكي على الأمس...)

«آه.» همست مادلين بذلك والدموع تغسل وجنتيها.

قالت سادي والدموع تسيل من عينيها هي الأخرى.

«لقد كان قُتل اربعة من قوات السلام الدولة هناك، يا مادلين. لا تدعيه يرحل دون ان تخبرية بمشاعرك نحوه.»

فقالت مادلين باكية: «ولكنه لا يريد أن يعلم. انه لا يريد امراة في حياته. حتى ولو أراد، فهو لا يريد امراة مثلي لقد أوضح لي ذلك بصراحة.»

مسحت سادي دموعها وهي تقول: «إنك أحياناً، يا مادلين تثيرين غضبي إلى حد لا يمكن احتماله. إنه رجل فافهمي هذا. وهم جميعاً يولدون اغبياء بالنسبة الى الحب. فهو يخاف ان يعترف لك بما يريد.»

قالت مادلين وهي تنتحب: «إنه لم يعرف الخوف في حياته.»

شخرت سادي ساخرة: «إذا كنت تصدقين ذلك، فأنت إذن قد ولدت غبية أيضاً.»

* * *

في الشهر التالي انتهت فترة رئاسة مادلين للجنة فانتخب جون مورتيمر مكانها، وفي نفس الاجتماع كشف

النقاب عن أن ميك هاميلتون قد منح رخصة مؤقتة تسمح له بإصلاح ما تهدم من سقف مبنى المنتجع ومداخنه. وقد وكّل المالك ويليس هاردنغ بالإشراف على ذلك كما تراه لجنة التراث مناسباً.

أعلنت سادي قائلة، اثناء زيارتها إلى المكتبة في الصباح التالي لهذا الاجتماع: «حسناً، إن هذا يستحق احتفالاً. وربما لم يكن ميك هاميلتون بيضة فاسدة، في الواقع. بالمناسبة، هل قرأت هذا الصباح عناوين الصحف؟ الأخبار سيئة جداً هذه الأيام.»

فشحب وجه مادلين: «كلا، حتى انني لم اعد اراقب الاخبار على شاشة التلفزيون. إنني خائفة جداً مما قد أراه.»

أجابت سادي وهي تنظر إليها بإمعان: «ربما كان الأمر كذلك. ماذا هناك يا مادلين؟ لا تبدو فيك أية حرارة.»

اغتصبت مادلين ابتسامة: «لا شيء. ستمر الأمور كما هي العادة.»

«ماذا تعنين بقولك (كما هي العادة) منذ متى تشعرين بأنك مريضة؟»

تنفست مادلين بعمق، ثم ابتلعت ريقها: «ليس منذ فترة طويلة... ثم انني لا اشعر بالمرض بالضبط. لا بد أنها الانفلونزا المنتشرة هذه الايام.»

«أما زلت تفكرين فيه؟»

«لا أدري ما الذي تتحدثين عنه.»

«إنني اتحدث عن ميك طبعاً.»

«كلا، أنا لا أفكر فيه.»

«لماذا الانكار؟ إننا نحن الاثنتين، نعلم أنك تحبينه.»

«سادي، كيف تحبين رجلاً لم تعرفيه إلا منذ أقل من شهر؟»

فهزت سادي كتفيها: «مثل روميو وجولييت.»

«لقد كانا صغيري السن.»

«والملكة فيكتوريا وزوجها الحبيب البرت. والداك عمتي بيني وزوجها سيدني.» وأضافت ساخرة: «ما عداك أنت، أليس كذلك؟»

كبحت مادلين دموعها: «لقد كنت ظننت أنني أحببت مارتن فانظري ماذا حدث.»

«وما دخل هذا بحبك لميك هاميلتون؟ اتريدين القول أنهما متشابهان؟»

«طبعاً لا، حتى ولا واحداً بالمليون.»

«إذن، لماذا لا تتصلين به وتخبرينه بشعورك؟ ألم يخطر ببالك السبب الذي جعله يعطيك رقم هاتفه؟»

ولكن مادلين لم تكن تريد ان تستعطفه ليعود، تريده إما أن يعود من تلقاء نفسه، أو أن لا يعود مطلقاً.

• • •

كان الوقت أواخر شهر أيار (مايو) وكان قد مضى سبعة أشهر على حدوث الزلزال، كان الطريق الى منزلها قد اصلح منذ وقت طويل، وازيلت الاشجار الساقطة. ولكن الشيء المحير اكثر من كل شيء هو ان منتجع تايلور قد اصلح تماماً حتى عاد الى حالته الاصلية الرائعة.

ذلك انه وبشكل مفاجيء تلقت السلطة التنفيذية للجنة التراث اعتماداً مالياً من محامي ميك هاميلتون لاكمال

الاصلاحات الى نهايتها بالنسبة للمنتجع والحدائق. بالاضافة الى ذلك، منحت اللجنة حق تأجير الاملاك هذه للاعراس والحفلات وما اشبه هذا بشرط ان ينفق ايراد كل ذلك على تعليم الصبي ستيفن لاندري.

لم تعرف مادلين ما الذي جعل قلب ميك يتغير بهذا الشكل كل ما كانت تعرفه هو أنها، كلما ازداد بعدها عن ميك ازادا نسيانها له استحالة.

وهذا النهار، كل سكان المدينة قد اجتمعوا هناك لمشاهدة الحدث والذي هو الاحتفال بانتقال الاملاك رسمياً الى لجنة التراث وذلك بوجود من يمثل اسرة تايلر وكانت الموسيقى تصدح من المبنى يحملها النسيم عبر كثبان الرمال نحو منزل مادلين حيث كانت هذه واقفة في غرفة نومها التي كان النسيم يعبث بستائرها.

كان ثوبها ملقى على السرير خلفها ينتظر. كان من الحرير وردي اللون وعلى فتحة العنق كانت ورود مطرزة باللون الأخضر وكذلك على الكمين. وعلى الارض بجانب السرير كان حذاؤها من الجلد الرقيق المدهون باللون الاخضر. وقبعة ذات حواف واسعة مزينة هي أيضاً بورود مطرزة باللون الاخضر.

ذلك أن الجميع كان يتوقع وجودها بصفتها الرئيسة السابقة للجنة التراث وهي المسؤولة عن حماية منتجع تايلور من الهدم. كانت ستكون بين ضيوف الشرف على الاخص ان مورتيمر الرئيس الحالي وزوجته يعتبرانها صديقة عزيزة لهما.

ولكن اعصابها لم تكن مضطربة بهذا الشكل توقعاً لمن

ستراهم من الناس، وانما لمن قد يحضر. ذلك انه حتى هذه اللحظة لم يكن احد يعلم بالضبط من هو الذي سيحضر ممثلاً اسرة تايلور رسمياً. هل من الممكن ان يكون ميك يا ترى؟

حتى سادي لم تكن تعرف آخر حديث دار بينها وبينه في تلك الليلة التي سبق اخذهما بالطائرة من جزيرة سبندريفت ولكنه بقي في ذهن مادلين من جملة الاشياء التي لم تستطع نسيانها قط.

«احياناً... وفي النادر... يبدو ان شخصين مختلفين... يمكنها ان يرتبطا...»

«ألن تعود ابداً؟»

«سأعود فقط إذا وجدت ان ارتباطنا ما زال موجوداً، رغم الزمن والبعاد.»

وخلال اكثر من سبعة أشهر، لم تستلم منه كلمة واحدة. فهل من المحتمل، بعد كل هذا الوقت، ان يكون هذا النهار مختلفاً؟ وهل يكون معنى منحه حقوق استغلال المنتجع هو انه لا ينوي العودة على الاطلاق.

تغلبت على الألم الذي كان يرافق دوماً تفكيرها في ميك. كانت تحس بطعنته خلف عينيها وفي قلبها وفي عقلها فيجعلها تستعيد كل لحظة ثمينة امضتها معه، كل كلمة، كل نظرة، كل ابتسامة.

ما هذا الضعف فيها الذي جعلها تندفع إلى حب رجل غريب؟ لا أحد يقع في الحب من أول نظرة... على الأقل ليس ثمة امرأة عاقلة تفعل ذلك.

ماذا لو أنهما أنهيا علاقتهما بالإلفة والمودة وهل من الضروري أن تعني معرفتهما تلك التزاماً طوال الحياة؟

لماذا لا تتقبل هذا الواقع، بدلاً من أن تعيش في انتظار حدوث شيء يجمعهما مرة أخرى.

إنه لن يكون موجوداً هذا النهار. فمن غير المجدي أن تتمسك بالأمل. حتى ولو كان هناك اصل، فليس من الضروري ان يكون قد جاء لأجلها. وقد لا يتذكر كلمة من تلك الكلمات التي جعلتها محور حياتها وذلك منذ اللحظة التي خرج فيها من حياتها الى الأبد.

في الطابق الأسفل، دقت ساعة المطبخ الثالثة. بعد نصف ساعة سيبدأ الاحتفال. اتراها ستتمكن من اخفاء آلام قلبها خلف ابتسامة وذلك امام المدينة بأسرها؟ اتراها ستتمكن من مواجهة العطف والنظرات المتسائلة؟ العطف عندما يظهر آندي في الاحتفال وعروسه الجديدة متأبطة ذراعه؟ ولكن هل لها خيار في الأمر؟

استقامت في وقفتها ثم استدارت الى السرير حيث امسكت بثوبها لترتديه.

الفصل الحادي عشر

وقف ميك لحظة بجانب السيارة، ثم نظر الى المشهد الذي أمامه، كان المنتجع رائعاً مهيباً وتحيط به مساكب الازهار كما كان في الماضي.

كانت اثواب النساء الصيفية تخفق وتتمايل فوق خضرة المروج الزمردية. ومن الخلف، كان البحر العميق الزرقة يذوب في السماء رائعاً دون غيوم حتى انه كان من الصعب ان يتصور المرء ان من الممكن ان تسوده السحب والعواصف يوماً ما.

وضع يده على عينيه وهز رأسه، وكأن عمله هذا يغير من حقيقة انه بالنسبة الى الناس في العالم اجمع، لا يوجد مكان مثل هذا. ليس ثمة مكان من الهدوء والسكون يمكن ان يخفف من جراح القلب، ولا عودة إلى الماضي بحيث يستعيد القوة لمواجهة مستقبل من دون امل في الأفضل.

احتشدت الصور في ذهنه. صور لأماكن احرقتها القنابل كانت يوماً ما بيوتاً... لمدن كانت شاهدت المحاربين يمرون خلال شوارعها الأثرية قد اصبحت خراباً يتصاعد منها الدخان. والناس خصوصاً الاطفال...

ليس لهم ما يعودون إليه أو من ينتظرهم. فقد امحى ماضيهم وأظلم مستقبلهم.

وهو الرابض بين الانقاض والقذائف تتفجر حوله لم يكن حاله افضل من اولئك الذين فقدوا كل شيء. لا أحد ينتظره

عندما ينتهي هذا الكابوس، ولا مكان له يستطيع أن يسميه بيته. لا شيء عدا صورة لها كان قد التقطها لها سراً يوم تعارفا لأول مرة وكانت له طوال تلك الشهور ظلماً ضد الموت.

كم مرة أخذ يتأمل في تلك الصورة، متمعناً في ملامحها الحلوة بعينين قد انهكتهما مناظر الاعضاء الممزقة والقبور السطحية المحفورة على عجل. لشد ما هو متلهف الى نظرة منها إلى شذا يشمه منها.

نظر مرة أخرى إلى واجهة منتجع جدّيه الواقفة بكبرياء، شاعراً بالخزي وهو يدرك أنه منذ شهور كان يتفرج على دولة تندب تراثها المفقود دون أن يدرك قيمة تراثه هو. أتراه تأخر في عودته ومحاولة بناء مستقبل على انقاض ماضيه الذي كان اهمله ونبذه.

انبأته جلبة حدثت على شرفة مدخل المنتجع بأن وصوله قد اكتشف. استقام واقفاً وسوّى من ربطة عنقه ثم مدّ يده إلى داخل السيارة يخرج سترته. كان يريد أن يفعل أيّ شيء يلهيه من التمعن في الوجوه. لم يكن يعلم ما الذي يخافه اكثر... هل هو أن لا يراها مطلقاً، أم ان يراها متأبطة ذراع فارسها ذي البذلة الكحلية اللون.

واقترب منه رجل: «السيد هاميلتون، انني جون مورتيمر لقد سبق وتقابلنا من قبل، ولكن ربما انت لا تتذكرني.»

فصافحه ميك وهو يقول: «بل أنا اتذكرك. فأنت الرجل الذي تلطفت بالاشراف على اصلاح المنتجع اثناء غيابي.»

«هذا صحيح.»

أشار ميك الى المبنى: «إنني اهنئك، فقد قمت بعمل رائع.»

«شكراً. لقد كان الأمر صعباً ولكنه يستحق بذل الجهد وأنا افخر لكوني اشتركت بذلك.» وعندما اتجها نحو المنزل، وقف مورتيمر لحظة ليقول له: «قبل ان تحتويك الجموع اريد ان اخبرك عن مبلغ سروري حين اتصلت تقول انك ستحضر بنفسك بدلاً من ان ترسل من يمثلك. ليس فقط لأن وجودك هنا يسبغ مزيداً من المعنى على المناسبة، فكلنا مدينون لك بهذه المبادرة، نحن مسرورون للفرصة التي سنحت لنا بأن نخبرك بذلك مواجهة. اقول ليس هذا فقط، إنما لأن.. حسناً، إنني احب ان أرى النهايات السعيدة.»

لاحظ ميك معنى خفياً في قوله هذا، فأخذ يتفحص وجه الرئيس عن ذلك المعنى، ولكنه لم ير سوى الحرارة والمودة في عينيه الصادقتين. فقال: «شكراً.»

«هل حفظت غيباً كلمتك التي ستقولها؟»

فعبس ميك: «ليس تماماً. فأنا عادة ارتجلها عندما اقف امام الجموع. انني لست ذلك الذي يتدرب على الخطابة قبل ان يحين وقتها.»

فقال موريتمر ضاحكاً: «ولا أنا، ولكن ليس هذا بالمستحسن عندما تكون محط الأعين كما كنا اثناء اصلاح منتجع جدتك لشهر العسل. فالكلمات المرتجلة عادة ما تعود اليك فتشغل بالك.»

ففكر ميك في نفسه، إسالني أنا عن ذلك.

وأشار جون مورتيمر برأسه نحو شرفة الباب: «إننا

جميعاً جالسون انتظاراً للجزء الرسمي من الاحتفال، وفيما بعد سيقيم الاتحاد النسائي وليمة شاي. إنني لم اذكر انك ستكون هنا حيث انك اخبرتني بأن لا افعل رغم ان الفضول يتملكني لمعرفة سبب رغبتك في ترك هذا الأمر سراً.»

قال ميك وقد ساوره شيء من الندم وهو يرى نفسه يكذب مرة اخرى حالما يضع قدمه في هذا المكان، قال: «لم اكن واثقاً من قدرتي على القيام بهذه الرحلة حتى اللحظة الاخيرة.»

أما الحقيقة فكانت انه لم يشأ ان يعلن حضوره مسبقاً وذلك كيلا يحذر مادلين فتمتنع عن الحضور.

«لقد فهمت. حسناً، إذا كنت جاهزاً فلجنة الاستقبال متشوقة للترحيب بك كما تستحق فنحن يتملكنا الحماس في هذا النوع من الامور.»

رآه ميك رجلاً جمّ اللياقة ووقعت نظراته على مجموعة من السيدات والرجال في منتصف العمر وقد اصطفوا لمصافحته. ولكنهم لم يبدوا في نظره بمثل مهابة جده.

كانوا قد نصبوا مظلة في الشرفة ووضعوا ما يكفي من الكراسي لجلوس الضيوف الكبار ومن ذوي المقام الرفيع. اتخذ ميك كرسي الشرف في وسط الصف وهو يحاول النظر حوله دون ان يدع احداً يلحظ ذلك ولاحظ ان كل الكراسي كانت مشغولة ما عدا واحداً في النهاية.

كان الشعور المؤلم بالفراغ، والذي رافقه اكثر من نصف السنة الماضية، قد بدأ يتحرك في نفسه. إنها غير موجودة انها ليست في الشرفة حيث مكانها بصفتها الرئيسة السابقة للجنة التراث، كما أنه لم يرها بين الجموع في الحدائق.

ابتدأ الخطباء يلقون كلماتهم والتي لم يكن لها نهاية كما كانت أيضاً تبعث على النعاس. وكلها تثني على بصيرته وكرمه كما تتحدث عن اهمية المحافظة على تراث المنطقة. وكيف ان الايام الخيرة الماضية قد عادت مرة أخرى. واخيراً جاءت الدعوة اليه ليلقي كلمته.

نهض واقفاً فارتفع التصفيق، بينما اتجه نحو الميكروفون ثم فتح فمه وقد قرر ان يجعله اقصر حديث في التاريخ ولكنه ابقاه مفتوحاً وكأنه نسي سبب وجوده هنا، وقد تحول انتباهه فجأة الى تموجات ثوب وردي ووجه ناعم تحت قبعة من قش عريضة الحوافي وساقان رشيقتان تنتهيان بقدمين نحيلتين في حذاء اخضر بينما صاحبتها تجلس برشاقة على الكرسي الخالي.

التفت اليها، ولكنها كانت تنظر الى الامام وقد بدا عليها الهدوء والكبرياء. ومال الرجل البدين الجالس بقربها الى الامام وهمس شيئاً من جانب فمه، ثم مسح جبينه بمنديله.

تصاعدت همهمة خفيفة بين الجموع وقال رجل بأدب: «تابع كلامك يا رجل، فالجو حار بالنسبة الينا نحن الفلاحين، ونحن نقف في الشمس.»

لم يكن لديه فكرة عما قاله. ولم يستطع ان يتذكر اسم أو وجه المرأة التي قدمت إليه طبقاً تنكارياً للمناسبة. وعندما نهض أخيراً ضيوف الشرف وقوفاً كان كل ما امكنه ان يفعل هو أن لا يصطدم بهم اثناء سرعته للوصول إليها.

«من هذا الطريق يا سيد هاميلتون.» خاطبته بذلك امرأة وهي تلوح له بيدها مشيرة الى خيمة كبيرة مخططة

بالأبيض والأزرق، وهي تقول: «إن الشاي بالانتظار.» وإذ اضطر للسير معهم، نظر خلفه لكي يتأكد من أن مادلين كانت تتبعهم، فلم ير سوى حافة قبعتها خلال تلك الجموع. ووجد نفسه يدخل الى خيمة الشاي حيث دس شخص ما في يده كوباً وصحنه، بينما قدم اليه شخص آخر صينية عليها شطائر.

عاد جون مورتيمر الى الظهور فأنقذه بأن اخذه الى مائدة قد اقيمت تحت ظل شجرة. فقال بلهجة حاول ان يجعلها عفوية: «لا أرى كل الاشخاص الذي كانوا على الشرفة.»

اجاب جون: «الرجال هم في الخيمة القريبة منا، أما النساء الغير موجودات حيث اواني الشاي فقد تطوعن دليلات للزوار داخل المنتجع نفسه. فهناك عرض حقيقي الان إذ كل الاثاث الاصلي والقطع الفنية تقريباً قد اصلحت ورممت، والناس متلهفون لرؤيتها، ولكننا لانظنك تريد من الجموع ان تمر خلال الغرف المحفوظة لاستعمالك الخاص.»

ونظر إلى كوب ميك الذي لم يمس: «ما رأيك في استبدال هذا الكوب البارد بكوب آخر ساخن، ثم تلقي نظرة على البيت الصيفي السفلي؟»

«لا شك ان ذلك المنظر مريح اكثر من شعوري هنا.»

فابتسم جون قائلاً: «اتبعني اذن.»

• • •

وقفت مادلين عند منضدة ضخمة من خشب السنديان

وذلك في وسط ردهة المدخل الرئيسي حيث أخذت تناول الخرائط الى الزوار الراغبين في رؤية بقية المنزل. وبجانبها كان يوجد حوض ايطالي من الرخام يحتوي على ازهار الليلك، سقطت منها واحدة الى الأرض. وأثناء فترة هدوء بين الجموع، انحنت تعيدها الى مكانها. وعندما عادت فوقفت اذا بميك يدخل من الباب الامامي برفقة مورتيمر. هكذا جاءت اخيراً اللحظة التي كانت تخشاها. كانت ميك قد وقف عند العتبة وقد اعماه الضوء المتألق في الخارج، منتظراً ان يعتدل نظره. واغتنمت مادلين هذه اللحظة، فأمسكت بساق الزهرة ووقفت مسمرة مكانها وهي تملأ عينيها منه.

كان رائع الوسامة كعهدها به، وبالغ الاناقة ببذلته الرمادية الفضية وقميصه الأبيض وربطة عنقه الثمينة. ولكن هل كان ذاك لمسة من بياض في سالفيه؟ ولمحة من الشك في عينيه؟

إذا كان الأمر كذلك، فقد اخفاه في اللحظة التي التقت فيها عيناه بعينيها.

تمتم شيئاً لجون، ثم تقدم نحوها بخطوات واسعة.

أخذت تلاحظ تقدمه خطوة خطوة، وقلبها ترتفع خفقاته مع خطواته، إلى أن اصبح امامها. عند ذلك توقف ونظراته تسمرها مكانها.

«ما الذي تفعلينه إذ تكمنين هنا خلف هذا الحوض من الزهور يا سيدتي الرئيسة السابقة؟» سألها هذا بذلك الصوت الدافىء الذي تخلل احلامها شهوراً طويلة: «هل تحاولين اخفاء بيغليغ؟»

اذابت الابتسامة التي رافقت سؤاله هذا قلبها وخطفت انفاسها، فقالت: «كلا. فهم لم يوجهوا إليها دعوة.»

فقال: «هذا سهو مخيف منهم. لو كنت مكانك لقدمت شكوى بذلك.»

في تلك اللحظة ظهر آندي من الردهة الخلفية وهو يسأل ببشاشة: «هل رأى أحد زوجتي؟»

عند ذلك توقف الزمن، وقد جمدهم جميعاً في اماكنهم. مادلين تحدق في ميك ويدها تسحق زهرة الليلك على صدرها، وآندي يقف خلف ميك مباشرة وقد بهتت ابتسامته بينما عينا ميك مسمرتان على وجهها.

عينان فارغتان لا حياة فيهما. وكتفان انحنتا وكأنهما تنوءان بحمل ثقيل.

كم مرّ من الوقت قبل ان يسمع وقع خطوات سريعة في المعرض الأعلى، ثانية واحدة؟ نصف دقيقة؟ نصف الحياة باكمله؟ وكم مرّ من الوقت بعد ذلك قبل ان تركض سيسيلي لاثام بمرح هابطة السلم الرائع ثم تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها آندي، فيحررهم هذا اخيراً مما سمرهم مكانهم؟

قالت بصوت مرح: «أتراني قاطعت حديثكم؟»

قال آندي وهو يقودها بذراعها بسرعة نحو المدخل الرئيسي: «كلا، لقد فرغت من عملي الآن، وكنت اتساءل عما اذا كان بإمكاني التحدث اليك لكي تخرجي معي لتناول الشاي.»

وتلاشى صوتهما في أشعة الشمس، بينما توارى جون مورتيمر من خلال باب الصالون الرئيسي.

ازدرد ميك ريقه، ثم بلل شفتيه بلسانه. مد يده يقبض على

اصابع مادلين متفحصاً وهو يقول بصوت مرتجف تقريباً:
«لا يوجد خاتم زواج.»

فأجابت: «كلا. إنني غير متزوجة.»

«ولكن ذلك الفارس في البذلة الكحلية...»

فقالت: «لقد قابل أخيراً المرأة المناسبة فوقع في غرامها على الفور. إن سيسيلي هي ممرضة جديدة في المستشفى العام. وقد تزوجا منذ اربعة أشهر. وهما ما زالا في شهر العسل، كما ربما لاحظت عليهما.» وابتسمت.

فهز ميك رأسه وكأنه يزيح الغيوم التي ملأت ذهنه.

«أنت لم تتزوجي بعد؟» كرر هذا بصوت هامس.

«كلا.»

«لماذا لم تتصلي بي وتخبريني بذلك؟ كنت اذن سأحضر قبل الآن.»

فهزت رأسها: «لم أشأ لك ان تحضر بناء على دعوة مني، يا ميك. فقط اذا شئت أنت بكامل رغبتك.»

نظر إليها طويلاً: «ماذا يمكنني أن اقول، وأنا أراك تمتنعين عن الزواج والاستقرار في انتظار ان اشاء أنا العودة بكامل رغبتي؟»

«لا يمكنني أن أخبرك بما يمكنك أن تقول. أما أنا فقد تعلقت بالرجاء على الدوام، موحية الى نفسي بالقوة التي تعينني على الاستمرار وحدي اذا لم تتجسد آمالي. فأنا اعرف انك تريد امرأة قوية لديها الاكتفاء الذاتي، امرأة بإمكانها...»

رفع يده مقاطعاً: «منذ فترة قصيرة، قال الرئيس الجديد للجنة التراث شيئاً وجد تجاوباً مع افكاري وهو أنه وجد ان

من غير الحكمة ان يندفع الى قول شيء قبل أن يفكر في مضمون ما سيقوله ذلك لأن كلماته تلك كانت تعود لتشغل باله.»

«فهمت.» وأخذت تنظر اليه مفكرة متأملة في ملامحه الحبيبة وميزاته التي جعلتها تقع في غرامه من اول نظرة. الشجاعة، الظرف، وقبل كل شيء مبادئه الثابتة التي ترفض التغير مع الظروف.

وجدتها جميعاً بالاضافة الى شيء جديد، وهو التواضع الذي يلطف من كبريائه دون أن يقلل من هيبته.

عاد يقول: «إنك تنظرين إلى رجل مشغول البال إلى أقصى حد يا مادلين.»

فهمست: «وبماذا يمكنني أن اساعدك؟»

تدفق فوج جديد من الزائرين من الباب الأمامي. ولكنهم جمدوا في اماكنهم وهم يرونهما يقفان معاً متلاصقين تقريباً وابتدأت التمتمة بينهم.

نظر هو إليهم من فوق كتفه، ثم امسك بذراعها متوجهاً بها نحو السلم حيث صعدا الى الطابق الثاني.

في نهاية الردهة، كان هناك باب يؤدي إلى غرف غير مفتوحة للزائرين فدخل واحدة منها جاراً اياها خلفه. ثم رفس الباب فأغلقه والتفت اليها يقول: «من اين ابدأ؟ بالاعتذار أم بالتفسير؟»

امتلأ قلبها سعادة وهي تسمع منه ذلك واستندت بظهرها إلى ظهر كرسي عاقدة ذراعيها فوق صدرها بينما تابع هو يقول: «إن علينا أن نسوي بعض الأمور الآن.»

تنفس بعمق ثم اسرع يقول وكأن الكلمات تحرق فمه:

«قبل كل شيء أنا آسف لكوني كنت غبياً من الدرجة الأولى حين غادرت هذا المكان في شهر تشرين الأول الماضي. ثانياً، كانت علاقتنا مصهورة من مادة قوية فلا الزمن ولا البعاد قد اضعفها ذرة واحدة. فقد كانت السبعة أشهر الأخيرة عذاباً صرفاً بالنسبة إلي من دونك. ثالثاً، لماذا انتظرت كل هذه المدة دون أن تتصلي بي مادمت تحبينني؟»

فقالت باسمة: «أولاً، نعم فانت كنت غبياً من الدرجة الأولى في ذلك اليوم الذي تركتني فيه. ولكنني صفحت عنك بالنظر الى وفاة جدك وانشغالك بجنازته. ثانيا، إنني مسرورة لأن السبعة اشهر الماضية كانت عذاباً صرفاً بالنسبة اليك ما جعلني أشعر بانني لم أكن الوحيدة في آلامي. ثالثاً، كنت انتظر قبل أن اتصل بك نهائياً ان استقر في حياة جديدة.»

«حياة جديدة؟ أي حياة جديدة؟»

«إنني لا أريد البقاء في جزيرة سبندريفت. صحيح أن جذوري وذكريات طفولتي هي هنا، وأنني امضيت فترة كنت فيها بحاجة إلى ما يرفه عني من تلك الذكريات، إلا أن هذا انتهى الآن بعد أن لم يعد ثمة حاجة لذلك، إذ أصبحت من القوة بحيث صار بامكاني ابتداء حياة جديدة.»

بدا في عينيه بريق خطر وهو يسألها: «وأين صممت القيام بذلك؟»

«في مدينة صغيرة ولكن ليست منعزلة كثيراً. مكان هو اقرب الى ما تختص به المدن الكبرى من موائد حضارية وقد وجدت مستأجراً لمزرعتي وهو شخص يريد أن ينهض بالمزرعة مرة أخرى.»

فقال: «حسناً، لقد عرضوا علي شراء صحيفة في مدينة صغيرة في كاليفورنيا.»

سألت دون ان تستطيع خنق الرجاء الذي ساور نفسها: «أحقاً؟ وماذا بالنسبة الى عملك كمراسل صحفي؟»

«لقد فقد هذا العمل بريقه. أو ربما صرت اكبر سناً من أن يثيرني ذلك العمل بعد الآن. أو ربما اصبح لدي رغبة في الاستقرار وإعالة زوجة وأولاد.»

فسألته: «زوجة؟ وهل ستتزوج؟»

حملق فيها قائلاً: «اتعلمين؟ لقد اصبحت شخصيتك أقوى كثيراً مما كانت يوم عرفتك. ما الذي احدث هذا التغيير فيك؟»

اجابت: «لقد تعبت من انتظار بعض الناس ان يتصرفوا. واخيراً ادركت ان هذا البعض قد لا يفعل شيئاً، فقررت أن اتصرف بنفسي.»

«اتعنينني أنا بقولك (بعض الناس)؟»

«نعم.»

ففتح فمه مذهولاً: «حسناً.»

فقالت: «ولكنك لم تجب على سؤالي. هل ستتزوج؟»

اجاب: «هذا يعتمد على الجواب الذي سأسمعه. هل ستتزوجين أنت؟»

«اتعني اتزوجك أنت؟» وهزت رأسها نفياً: «كلا بالطبع، إلا إذا عرضت عليّ ذلك بصفة رسمية.»

توتر فكه، وقال: «إنني اتقدم بطلب يدك للزواج، يا آنسة سلايتر.»

«لماذا؟»

فانفجر يقول: «تباً لذلك. لماذا تظنينني اريد الزواج؟»

«أخبرني.»

أخذ يعبث بربطة عنقه، ثم تخلل شعره بأصابع متوترة ثم اغمض عينيه لحظة قال بعدها من خلال اسنانه المطبقة: «لأنني أحبك.»

فقالت: «هذا حسن جداً.» وتابعت تقول مقتبسة اسلوب سادي: «والآن، هل لك ان تكرر ما قلته من دون ان تبدو وكأنك وجدت ذبابة ميتة في فمك؟»

مسح حاجبه، وقال: «تباً لذلك يا مادلين. انك تعلمين جيداً انني أحبك. وقد تكونين عرفت هذا قبل أن اعرفه أنا، اظنني احببتك منذ وقعت عيناي عليك.»

فقالت: «في هذه الحالة، يكون لي الشرف بأن اتزوجك يا سيد هاميلتون حيث انني أنا احببتك في نفس الوقت الذي تقول إنك احببتي فيه.»

فنظر إليها ساخطاً: «كان المفروض أن يبدو عليك شيء من التأثر لهذه اللحظة الشاعرية.»

كان بإمكانها ان تقول له ان قلبها يقرع كالطبل. وأنه إذا كان يظن لحظة واحدة انها هادئة المشاعر داخلياً بمقدار عشر ما تبدو عليه خارجياً، فهي اما انها ممثلة قديرة وإما أنه ممن تخدعه المظاهر بسهولة.»

تابع هو يقول بلهجة جريحة: «حتى انني لا اعلم عن رأيك في الحياة في كاليفورنيا.»

كانت تحبه إلى درجة لم تشأ معها ان تطيل عذابه، فقالت: «أظن ان بإمكاني ان اعيش في أي مكان طالما أنا معك.»

«لا اعدك بأن اجلسك دوماً على فراش من الورود، يا مادلين. انني لست... طيباً جداً كما وصفتني مرة.» وابتسم.

فقالت بهدوء: «الزواج هو دوماً مغامرة. حتى عبور الطريق هو مغامرة ايضاً. ولكننا احيانا نقوم بتلك المغامرات لأن النتيجة تستحق ذلك.»

نظر اليها برقة فائقة وقد لمعت الدموع في عينيه: «إنني لن اخيّب أملك بي على الاطلاق.»

فهمست: «وأنا أيضاً سأحاول ان لا اخيب أملك بي وإن كنت لا اضمن لك بأن اكون دوماً امرأة مغامرة كما تريدني أن اكون. فالإنسان لا يستطيع أن يغير من طبيعته كثيراً.»

«لا أريدك ان تتغيري أبداً. تباً لي، فقد كنت على خطأ حين اقترحت عليك ذلك. ابقي فقط كما أنت لأنني وقعت في غرامك وأنت بهذه الصفات.»

فأغمضت عينيها شاعرة بأن عذابها ووحشتها الماضيين قد تبددا الآن.

وعندما خرجا من الغرفة الى حيث كانت مجموعة صغيرة من الزائرين تقودهم ديليس ستيتش الى الصالون الرئيسي وهي تقول لهم: «من هنا نصل الى الردهة حيث المدخل الذي رصفت ارضه بالرخام الايطالي منذ اربعة وستين عاماً وذلك بواسطة ادموند تايلور اكراماً لعروسه جيسيكا. انكم ستلاحظون ان حفيدهما، وهو المالك الحالي الآن، ميك هاميلتون والذي هو طبعاً مراسل صحفي شهير والذي غامر بحياته مرات كثيرة لكي يحضر إلينا الأخبار من أنحاء العالم.»

«... قد جاء الآن عائداً الى خطيبته مادلين سلايتر، للزواج منها وافتتاح المنتجع بأول شهر عسل يقام فيه.»

ومالت الاعناق الى حيث صدر هذا الصوت ليروا ميك هاميلتون واقفاً عند الباب الكبير المعقود، وبجانبه مادلين.

وتصاعد التصفيق مدوياً في انحاء القاعة.

تمت

www.elromancia.com